

من أسرار التناسب والتكامل بين الأحاديث النبوية الشريفة<sup>(١)</sup>

د. إسماعيل رفعت إسماعيل السوداني

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بجامعة الجوف

باحث دراسات عليا بجامعة الأزهر

---

(١) بحث مدعوم من قبل جامعة الجوف ضمن المشاريع البحثية برقم (٣٥ / ٢٩٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

## المقدمة

الحمد لله الواحد الأحد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين ... وبعد ، فهذا بحث بعنوان : من أسرار التناسب والتكامل بين الأحاديث النبوية الشريفة ، طالما شغل خاطري ، وأرق سهادي منذ مرحلة الماجستير ، حين وجدت إشارة إليه في كتاب العلامة محمد أبو موسى "شرح أحاديث من صحيح البخاري" معلنا أن "هذا باب جليل في بيانه p لم يدرس بعد، وهو من جوهر البلاغة ، وجوهرها كما يقول علماءها الكبار : أن تتوصل إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف ، وتتفق ومن أين تجتمع ، وتفتق ، وهذا هو باهما" (١) .

ولقد كنت شغوفاً بالبحث والتنقيب منذ مرحلتي هذه عن بحث يشفي الغليل ، أو يخوض غمار هذا المعترك الصعب المراس ، فلم أجد لذلك شفاء ، ولقد جاء هذا البحث ليفتح باباً من أبواب بيانه - صلى الله عليه وسلم - هذا الباب يؤكد أن بلاغة الحديث النبوي الشريف لا تقف عند حدود النص الواحد ، بل تتعداه إلى نصوص أخرى ، وأن هناك أحاديث لو وضعناها بجوار بعضها البعض لوجدناها ترسم لوحة فنية عالية ، فبلاغة النبي - صلى الله عليه وسلم - لا تقف عند حدود النص الواحد ، بل حديثه - صلى الله عليه وسلم - يتم بعضه بعضاً ، في ترابط وتناغم عجيب بديع .

ولقد عمدت إلى حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاخترته منه ثلاث مجموعات ، من أحاديث الصدقة ، والجار ، والصدق ، ومحاولاً التماس ما فتح الله به على من أوجه التناسب ، والتكامل ، وكان لزاماً علي أن أبدأ أول مباحثي بأحاديث الصدقة ، التي أشار إليها العلامة أبو موسى ؛ ليكون هذا المبحث هو البداية التطبيقية لهذا الدرس ، وذلك لأن العلامة أبا موسى ذكر أن هناك تناسبا وتكاملاً ، ولم يعمد إلى بيان هذه الأوجه ، كعادته في طرح الموضوعات للباحثين ، وفتح آفاق للدرس والبحث لم تفتح بعد .

ولقد جاء هذا البحث في مقدمة ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة ، ووثبت للمراجع ، وفهرس للموضوعات .

المبحث الأول : من أسرار التناسب والتكامل في أحاديث الصدقة .

المبحث الثاني : من أسرار التناسب والتكامل في أحاديث الجار .

المبحث الثالث : من أسرار التناسب والتكامل في أحاديث الصدق .

(١) ينظر شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول ، د. محمد محمد أبو موسى ص ٢٨٣ ( بتصرف ) ، مكتبة وهبة - الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .

ثم تأتي الخاتمة مثبتا بها أهم النتائج التي خلص إليها الباحث ، وبعض التوصيات ما أمكن إلى ذلك سبيل .

والله أسأل التوفيق والسداد ، " رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ " [ سورة آل عمران آية ٨ ] .

#### د. إسماعيل رفعت إسماعيل السوداني

### المبحث الأول: من أسرار التناسب والتكامل في أحاديث الصدقة

١- عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون »<sup>(١)</sup>.

٢- عن معاذ بن جبل قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني عن النار ، قال: « لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه ؛ تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ ، الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [ السجدة ١٦ ] »<sup>(٢)</sup> .

شاهدنا في هذا الحديث: « والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ».

٣- عن أبي بريدة عن أبيه عن جده قال: قال النبي ﷺ « على كل مسلم صدقة، فقالوا : يا نبي الله فمن لم يجد؟ قال: يعمل بيديه، فينفع نفسه ويتصدق، قالوا: فإن لم يجد؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف، قالوا : فإن لم يجد؟ قال : فليعمل بالمعروف، وليمسك عن الشر فإنها له صدقة »<sup>(٣)</sup>.

٤- عن مرثد بن عبد الله، قال: حدثني بعض أصحاب رسول الله ﷺ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن ظل المؤمن يوم القيامة صدقته »<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک - كتاب التوبة والإنابة ، وابن ماجه في سننه - كتاب الزهد باب ذكر التوبة ، والدارمي في سننه - كتاب الرقاق باب التوبة .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - ٣٦/٣٤٤ طبعة الرسالة ، والحاكم في المستدرک - كتاب التفسير - تفسير سورة السجدة .

(٣) أخرجه البخاري - كتاب الزكاة باب على كل مسلم صدقة ، ومسلم - كتاب الزكاة باب بيان اسم الصدقة .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥٧٩/٢٩ طبعة الرسالة .

## بيان وجه التكامل والتناسب

في كلام رسول الله  $\rho$  تناسب، وتكامل عجيب، ليس في دائرة النص الواحد، وفي بناء لغته ومعناه، وإنما في دائرة نصوص كلامه  $\rho$ ، وحين تضع الأحاديث الأربعة السابقة، تجد فيها تكاملاً عجيباً، وتجدها تتم بناء واحداً، وكأنها كلها حديث واحد، وبيان هذا في هذه الأحاديث، أن رسول الله  $\rho$  قال: «كل بني آدم خطاء»، ثم قال: «والصدقة تطفيء الخطيئة»، ثم قال: «على كل مسلم صدقة»، ثم قال: «إن ظل المؤمن يوم القيامة صدقته»، وواضح أن هذه الأحاديث الأربعة يتم بعضها بعضاً، لأنه ما دام كل بني آدم خطاء، والصدقة تطفيء الخطيئة، فقد وجب على كل مسلم صدقة، هذه الصدقة وقاية وظلة له يوم القيامة.

وهذا باب جليل في بيانه  $\rho$  لم يدرس بعد، وهو من جوهر البلاغة، وجوهرها كما يقول علماءها الكبار: أن تتوصل إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف، وتتفق ومن أين تجتمع، وتفترق، وهذا هو بابها. (١)

النظر هنا ليس في صلة الرحم التي تجمع كل جملة بأختها، وإن كان هذا أمراً محققاً في الأحاديث بلا ريب، وظاهر جدا التناسب بين الجمل في كل حديث، وهو ما سنقف على بعضه، ولكنني أجد الوشائج وأواصر القربى والرحم كما تكون بين جمل الحديث، ومعانيه فإنها تكون بين الحديثين والأحاديث التي يجمعها معنى عام، أو موضوع واحد، بحيث تتلاقى المعاني في الحديثين أو الأحاديث وتتآزر، بل وتتكرر بعض الألفاظ فيها لتكون معالم هادية لهذا التشابك، والتواصل، والتناسب، ثم ينفرد كل حديث منها بما يضيف إلى المعنى إضافة يكون بها الحديث أصلاً في معناه، ورأساً في فقه مسألة، أو تشريع، وهذه الإضافة أيضاً تملأ مساحة كان مسكوتاً عنها في الحديث الآخر، وبضم الحديثين أو الأحاديث تكتمل الصورة الكلية للمعنى، أو الموضوع للحديث النبوي الشريف.

فالأحاديث الأربعة تشترك في معنى عام وهو: بيان عظيم فضل الله ورحمته على بني الإنسان، ولسائل أن يسأل كيف يكون قوله  $\rho$ : «كل بني آدم خطاء» بياناً لرحمة الله وبيان عظيم فضله، وإن كان ظاهراً في باقي الأحاديث؟ .

أقول - والله أعلم - هذا الحديث دال بلا ريب على أنه لا يخلو من الخطيئة إنسان لما جبل عليه هذا النوع من الضعف، وعدم الانقياد لمولاه في فعل ما إليه دعاه، وترك ما عنه نهاه، ولكنه تعالى بلطفه فتح باب التوبة لعباده، وأخبر أن خير الخطائين التوابون المكثرون للتوبة على قدر كثرة الخطأ. (٢)

(١) ينظر شرح أحاديث من صحيح البخاري ص ٢٨٣ (بتصرف) علماً بأن الشيخ أبا موسى أكنفى في توضيح فكرته بالأحاديث الثلاثة الأولى.

(٢) ينظر سبل السلام محمد بن إسماعيل بن محمد الحسنى ٢ / ٦٥٣ دار الحديث بدون طبعة وتاريخ.

والذي يظهر لي أن ليس في وصف بني آدم بالخطأ من عيب، وإنما هو باب من أبواب الخير فتحه الله لعباده ليتوبوا، ثم يجود عليهم من فضله فيغفر لهم، كما قال **p** : « لولا أنكم تذبون لخلق الله خلقا يذبون ، فيغفر لهم »<sup>(١)</sup> ، كيف يكون عيبا ، وقد وصف به النبي **p** المجتهدين من أمته، وفيهم الصحابة والتابعون والأئمة ، حيث قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر »<sup>(٢)</sup> ، فعبر النبي **p** بإذا وهي تشعر بأن ما بعدها سيقع ، ووصف بجانب الصواب بأنه أخطأ. أما بيان تلاقي المعاني ، وتشابكها ، وتكرار بعض الألفاظ الهادية إلى ذلك في الحديث الأول ، والثاني ، فظاهر جدا ، فالحديث الأول : « كل بني آدم خطاء... » والحديث الثاني : « الصدقة تطفيء الخطيئة ... » ، يشتركان في تكرار لفظ الخطأ بصيغة المبالغة في الحديث الأول « خطاء » ، وبالصفة المشبهة « الخطيئة » في الحديث الثاني .

وفي التعبير بصيغة المبالغة « خطاء » دليل على ملازمة الإنسان للخطأ ، ولو كان الله - جل وعلا - قد خلق الإنسان كاملا لا يخطئ ، لما كان لكل فرد من بني آدم حظه من الخطأ ، فهذا دليل على أن الإنسان لا يسلم من الذنب ، ولذا قال تعالى : [ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ] [ فاطر آية ٤٥ ]

والسر في مجيء الخطيئة بالصفة المشبهة في الحديث الثاني توسعة أيضا في بيان رحمة الله، حتى ولو كانت الخطيئة صفة لازمة لصاحبها، إلا أن الصدقة تمحوها وتذهب أثرها، وإن كان صاحبها مبالغا في فعلها، وهناك سر آخر نستطيع أن نتلمسه حين نفرق بين الخطأ والخطيئة، فلقد فرق ابن منظور بينهما، فنقل عن بعض اللغويين الخطأ ما لم يتعمد ، والخطيئة : الذنب عن عمد<sup>(٣)</sup> ، وإذا كان ذلك كذلك فإن الخطأ سواء جاء بصيغة المصدر أو بصيغة المبالغة، فإنه غير متعمد، ولذا جاء حديث النبي **p** : « كل بني آدم خطاء » أي مبالغ في الخطأ بدون تعمد، وحين بين أثر الصدقة عبر « بالخطيئة » التي تدل على فعل الذنب عن عمد ، وذلك دال بلا ريب على أن الصدقة تذهب أثر الخطيئة وإن كانت متعمدة ، وليس في ذلك حث على الخطأ ، ودعوة إليه طالما أن هناك ما يذهب أثره ، وإنما في ذلك مبالغة في بيان عظيم ثواب الصدقة ، وشدة تأثيرها.

والذي يظهر لي - والله أعلم - من وراء تخصيص الصدقة دون غيرها من أبواب الخير في نحو الخطيئة، وإذهاب أثرها، أن من اعتاد عليها، وأكثر من فعلها ، يحدث في قلبه نوع من الشفقة على

(١) أخرجه مسلم - كتاب التوبة باب سقوط الذنوب بالاستغفار .

(٢) الإبانة الكبرى لابن بطه - كتاب الإيمان باب التحذير من استماع قوم يريدون نقض الإسلام ، والمنتقى لابن الجارود - كتاب

الطلاق باب ما جاء في الأحكام .

(٣) ينظر لسان العرب مادة خطأ .

خلق الله، فيلين قلبه، ويرق طبعه، وتصفو نفسه، ومن ثم يقبل على مولاه، فيكون في قربه هذا دليل على بعده عن هذا الخطأ وعدم اقترافه إياه.

ولنا في الحديث الأول « كل بني آدم خطأ » عدة وقفات:

المراد بالكل في الحديث من باب التغليب، لأن الأنبياء ليسوا بمبالغين في الخطأ، فهو استغراق على التوزيع بالنظر إلى المجموع<sup>(١)</sup>.

وفي إضافة ابن أو بني لآدم تذكير بخطيئة أبيهم آدم، ووسوسة الشيطان له، وإخراجه من الجنة، والأصل أن يتعظوا بخروج أبيهم من الجنة، فلا يدعوا للشيطان عليهم سبيلا.

ثم تأتي الجملة الثانية: « وخير الخطائين التوابون » معطوفة بالواو لما بين الجملتين من كمال الاتصال، فهما خبريتان، وبينهما مناسبة تامة.

وفي مجيء « خير » أفعل تفضيل دلالتان، فهي تدل أولا على تخفيف اللفظ بحذف حرف، إذ أصلها « أخير » فحذفت الألف لسرعة جريانها على الألسنة، وفي تقديمها مسارعة لتبشير المؤمنين بهذا الخير العظيم.

أي أن العبد لا بد أن يجري عليه ما سبق به القدر، فكأنه قال: لا بد لك من فعل الذنوب، لأن ذلك مكتوب عليك، فأحدث توبة، فإنه لا يؤتى العبد من فعل المعصية وإن عظمت وكثرت، وإنما يؤتى من ترك التوبة، وتأخيرها، فإن الله غفور يحب التوابين، وقد قال تعالى: [ **أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَبَدَرُوا بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ** ] [ سورة القصص آية ٥٤ ] فما وصفهم بعدم السيئة أصلا<sup>(٢)</sup>.

ومما يجب بيانه في الحديث الثاني: « والصدقة تطفي الخطيئة ... »

أن شاهدنا من الحديث مبني على جملتين، أولهما: « الصدقة تطفي الخطيئة » المعتمدة على الاستعارة التبعية في « تطفي » بمعنى تمحو الخطيئة، أي الصغيرة المتعلقة بحق الله تعالى، أو المكتنية حيث شبهت الخطيئة بالنار، وأثبت ما يلازمها من الإطفاء، وكلا الاستعارتين يحملان التأكيد في بيان كون الصدقة تمحو وتذهب أثر الخطيئة، وكأنها تجسدت كالماء، والخطيئة كالنار، فوضعت عليها فلا تتركها إلا هامة جامدة.

ثم تأتي الجملة الثانية: « كما يطفى الماء النار » لتضع تأكيدا آخر من خلال الصورة التشبيهية، حتى لا يدع مجالا لمتردد في بيان عظيم أثر الصدقة، ويذكر ابن علان سر اختصاص الصدقة بذلك: « كأنه لتعدي نفعها، ولأن الخلق عيال الله، وهي إحسان إليهم، والعادة أن الإحسان إلى عيال الشخص يطفى غضبه، وسبب إطفاء الماء النار ما بينهما من غاية التضاد، إذ هي حارة يابسة، وهو بارد رطب،

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٥ / ١٦ دار إحياء السنة النبوية ط أولى .

(٢) فيض القدير ٥ / ١٦ ، ١٧ .

فقد ضاها بكيفية جمعها، والصد يجمع الضد، فباطفاء الخطيئة يتنور القلب، وتصفو الأعمال، فذلك كانت الصدقة بابا عظيما كغيرها من الأعمال الفاضلة»<sup>(١)</sup>

وكلام ابن علان كلام طيب، مع أن في النفس شيء من قوله « عيال الله ». ولعل الأقرب من هذه المناسبة السابقة، أن الصدقة إذا وقعت في يد جياع أطفأت عنهم تلهب الجوع وتحرقه، وإيلام الجوع البالغ، أشد من إيلام حرق النار، فكما يطفئ الماء لهيب وحر النار، فكذا الصدقة تطفئ حر الجوع وتلهبه.<sup>(٢)</sup>

ثم يأتي الحديث الثالث، « على كل مسلم صدقة ... » ليشترك مع الحديث الثاني في لفظ الصدقة وليفتح أبوابا وطرقا لها لم تفتح من قبل، وكأنه من باب التفصيل بعد الإجمال، إذ اقتصر الحديث الثاني على بيان كون الصدقة تطفئ الخطيئة، وهذا الحديث يفتح ويذكر أبوابا كثيرة للصدقة، إما بالمال أو بغيره، وكان قوله **ρ** : « على كل مسلم صدقة » مشعر بالإيجاب، أي يجب على كل مسلم صدقة كبرت أو صغرت، يرتبط بالحديثين السابقين من حيث كون هذا الإيجاب المشعر بمبلغ الرحمة بيني آدم، محاولة في درء خطئهم، وكأنه **ρ** يحاول ويلح بكل ما أوتي من عند ربه، أن يمحو ذنوب أمته، رحمة، وشفقة بهم.

والحديث الشريف أصل جامع من أصول العمل الاجتماعي، فهو دعوة للرحمة والتراحم بين خلق الله مؤمنهم، وكافرهم، ولقد أبدع ابن حجر حين صنف، وقسم، وأدرج الأقسام في ترتيب منطقي، وإطار فكري بقوله: « ومحصل ما ذكر في حديث الباب، أنه لا بد من الشفقة على خلق الله، وهي إما بالمال، أو غيره، والمال إما حاصل، أو مكتسب، وغير المال إما فعل وهو الإغاثة، وإما ترك وهو الإمساك عن الشر »<sup>(٣)</sup>، وكان المطلوب ليس الصدقة فحسب، ولا الإغاثة، وإنما ما يجده المسلم في قلبه من شفقة تدعو إلى الصدقة، وإلى البر والإغاثة، لا بد له من قلب حي يعيش حب وود الإنسان، وكلمات ابن حجر « على خلق الله » أو شكت أن تعزى بالقول بأن هذا تراحم مع الإنسان، كل إنسان مسلم وكافر، ولكن الصدقة الأصل فيها أنها تؤخذ من أموال المسلمين، وتعطى لفقرائهم، وإغاثة الملهوف عامة، لأن الله سبحانه جعل في كل ذات كبد رطبة أجرا، وأشهد أنه دين الله.<sup>(٤)</sup>

وقوله **ρ** : « على كل مسلم صدقة » من جوامع كلمه، إذ فيه من المواجهة بجوهر الموضوع من غير مقدمات، ولا يستطيع أحد أن يقول: على كل مسلم صدقة لا على سبيل الوجوب، ولا على سبيل

(١) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية، لمحمد بن علان الصديقي ٦ / ٣٦٢ المكتبة الإسلامية (بدون).

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢ / ٢٦٢ - ٢٦٣ (بتصرف).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني ٣ / ٣٦٢ - دار المعرفة بيروت ١٣٧٩.

(٤) شرح أحاديث من صحيح البخاري ص ٢٨٧.

الندب، وإنما يقول المبلغ عن ربه، لأن هذه الجملة حقيقة من حقائق الدين، وباب من أبواب التعبد<sup>(١)</sup>، ومثل هذه الجمل الحاسمة الفاصلة واردة في حديثه **p** : « على كل سلامى صدقة ... » وكان من الممكن أن ينتهي الحديث عند هذه الجملة، وتكون هي برأسها حديثا لولا ما أعقب ذلك من سؤال الصحابة، « فمن لم يجد؟ ».

ولو أمعنا النظر في قوله: « على كل مسلم صدقة » نجد جوا من العموم يشمل الجملة، يهدف إلى عموم النفع والتراحم بين خلق الله، فهذه « كل » وما تحمله من العموم الصريح، ثم إيثار لفظ « مسلم » دون « مؤمن » حتى لا يدع مجالاً لأي مسلم في التكاسل عن أبواب الصدقة، أي أنه: بمجرد نطقه بالشهادتين، وجبت عليه هذه الصدقة.

ثم مجيء لفظ الصدقة بالتنكير « صدقة » يتناسب مع ذلك العموم، إذ يحمل في طياته دلالتين: أحدهما في جانب الله تعالى تعظيماً لشأن هذه الصدقة، وأنها تكون عند الله كجبل أحد، أو أن الله ينميها للعبد حتى تصير مثل جبل أحد، وثانيهما : في جانب العبد، فتفيد التقليل، فيجب على كل مسلم صدقة ولو قليلة، ولا تحقرن شيئاً من المعروف ولو قلًّا، ولذا قال **p** : « اتقوا النار ولو بشق تمرة »<sup>(٢)</sup>

والتنكير فيما أرى يتناسب أيضاً مع الخفاء المطلوب في باب الصدقة، أي صدقة يتصدق بها العبد في خفاء، فلا تعلم يمينه ما تنفق شماله.

والأمر في قوله **p** : « على كل مسلم صدقة » على سبيل الاستحباب المتأكد، ولا حق في المال سوى الزكاة إلا على سبيل الندب، ومكارم الأخلاق<sup>(٣)</sup>، ولو كان الأمر على سبيل الوجوب، لما كان هناك معنى لقولهم: « فمن لم يجد؟ » كأنهم فهموا من لفظ الصدقة العطية، فسألوا عمن ليس عنده شيء، فبين لهم أن المراد بالصدقة ما هو أعم من ذلك، ولو بإغاثة الملهوف، والأمر بالمعروف<sup>(٤)</sup>.

وتأمل أدب الصحابة في السؤال حيث يقدمون له بالنداء تأدباً، وتلطفاً، وإظهاراً للعناية، ثم ينادون بـ « يا » المؤذنة للبعد بين مكانة السائل والمسؤول، ثم دعاؤه عليه السلام بالنبوة، أو بالرسالة، يقولون مرة : يا نبي الله، ومرة : يا رسول الله، وفي هذا إعظام له عليه السلام، وبيان لمحله من ربه، ثم هو

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٨٣ .

(٢) أخرجه البخاري - كتاب الزكاة باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة ، ومسلم - كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة .

(٣) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لأحمد بن محمد القسطلاني ٣ / ٣٨ المطبعة الأميرية ط ١٣٢٣ هـ .

(٤) فتح الباري ٣ / ٣٩٣ .



إشارة إلى أننا نسألك عن نبأ هذا الأمر عند ربك الذي أنبأك، وجعلك نبياً<sup>(١)</sup>، وإضافة النبي إلى الله « يا نبي الله » مشعر بمبلغ التعظيم.

ثم يأتي الجواب لسؤالهم الأول: « فمن لم يجد؟ » يعمل يده، فينفع نفسه، ويتصدق؛ جواباً مؤكداً؛ لأن العمل لا يكون إلا باليد، وهذا كقولنا: أخذته بيدي، وسمعته بأذني، ورأيت به بعيني، لا يصار إلى مثل هذا إلا عند إرادة التوكيد، ولا تقول لمخاطبك: أخذته بيدك إلا إذا كان بصدد النسيان، أو الإنكار.<sup>(٢)</sup>

ومما يلفت الانتباه أن العطف في قوله: « فينفع نفسه » جاء بالفاء، وفي قوله: « ويتصدق » جاء بالواو، وفي ذلك ملمح أن المراد أولاً هو صيانة النفس من الهلاك، فترتب نفع النفس على عمله بالفاء المشعرة بذلك، ثم جمع بين النفع والتصدق بالواو.

ثم تأتي الإجابة عن السؤال الثاني « يعين ذا الحاجة الملهوف » لتضع مساعدة ذي الحاجة موضع الإنفاق، وهذا تأكيد لرابطة الأخوة بينك وبين أخيك المسلم، عملك له وعملك لنفسك في ميزان الله سواء، وكلمة « ذا الحاجة » غنية لأنها تعني أنه صاحب الحاجة، وملازم لها ملازمة الصحبة، وكأنها تشير إلى الفئة التي صاحبها العجز، والمطلوب: ألا تعطل طاقة وإن قلت .

ولو اقتصر الحديث الشريف على قوله **p**: « يعين ذا الحاجة » لكفى، ولكن مجيء كلمة « الملهوف » إشباعاً للمعنى، حتى تعطف قلوب الصالحين المستجيبين لله ورسوله نحوه، ولا شك أننا مطالبون بإغاثة ذي الحاجة مطلقاً<sup>(٣)</sup>.

ثم نجد صحابة رسول الله **p** يتقصون للمرة الثالثة « فإن لم يجد؟ » لا ليجدوا لأنفسهم عذراً فيقعدها عن خير يرضي الله، ويضع عنهم تكاليف التعبد، وإنما لأنهم أرادوا أن يفتح لهم **u** بجوار باب الخير العظيم الذي هو الصدقة، والتي ربما كانت غير متاحة لكثير من الراغبين في مرضاة الله، أبواباً أخرى من الخير تستوعب شرائح من لم يجد المال ومن لم يطق العمل، ومن لم يستطع الأمر بالمعروف، حتى تنتهي إلى ما لا يعجز عنه أحد وهو كفاؤه عن الناس، وكأنهم رضوان الله عليهم يسألونه صلوات الله عليه لأنفسهم، ولأجيال هذه الأمة من بعدهم.

ولقد كفانا العلامة أبو موسى بيان السر من وراء التعبير بالعمل في قوله **p**: « فليعمل بالمعروف » والأصل أن يقال: يأمر بالمعروف، أو يقول المعروف مصدقاً لقوله تعالى: [ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدْوَى ] [ البقرة آية ٢٦٣ ]، والوجه إما أن يكون لمناسبة يعمل بيده، وهذه المناسبات يعتبرها أهل البيان؛ لأنها تعني التآخي بين مكونات البيان، وكان الخطيب الإسكافي يعول

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٨٤ .

(٢) المرجع السابق ٢٨٥ .

(٣) ينظر شرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٨٥ ، ٢٨٦ ( بتصرف ) .

عليها كثيرا في دراسة المتشابه، حتى تتناغى الكلمات، وكذلك تكرار الكلمة تُعَلَى رنينا هو رنين هذه الكلمة، وتميزه وتلفت إليه لحاجة المعنى إلى ذلك، وهو هنا كلمة يعمل، والحديث كما ترى بني على العمل، والفعل عمل، والقول عمل.

والوجه الثاني: أن تكون كلمة « يعمل بالمعروف » للدلالة على مزيد عنايته بالأمر بالخير والمعروف، حتى يصير ذلك كأنه عمل من أعماله يعتاده ويألفه.

والوجه الثالث: أن تكون كلمة « يعمل » مشيرة إلى أن الأمر بالخير والمعروف يكون بعد عمل الخير والمعروف، وهذا أفعل في نفس من تأمره بالخير؛ لأنك ذقت فعل الخير ثم أمرت به<sup>(١)</sup>. وقوله: « وليمسك عن الشر » إن عجز عن أن يأتي بصدقة وجودية، فلا يعجز عن سلبية، وفيه تنزيل<sup>(٢)</sup> من فن البديع كما في قوله:

وخيل قد دلفت لهم بخيل تحية بينهم ضرب وجيع<sup>(٣)</sup>

ليس فيه تشبيه الضرب الوجيع بالسلام، بل فيه تنزيهه مكان السلام<sup>(٤)</sup>.

والذي يظهر لي أن العمل، والإمساك في قوله **p** : « فليعمل بالمعروف، وليمسك عن الشر » استعارتان جسدتا قول المعروف والأمر به، والامتناع عن قول الشر مبالغة في بيان عظيم فضلهما، وأنها لا يقللان في الأجر والثواب عن الصدقة، وحث لفاعلهما على الأمر بالمعروف، والإمساك عن الشر. ثم تأتي خاتمة الحديث « فإنها له صدقة » بتأنيث الضمير باعتبار الخصلة التي هي الإمساك<sup>(٥)</sup>، والذي يظهر لي في دلالة التأنيث، كما يشير بعض العلماء أن التأنيث يفيد الضعف، إذا كان ذلك كذلك، فإن التأنيث ههنا يفيد غرضا معنويا، وهو بيان أن الإمساك عن الشر لا يعادل في ثوابه التصدق بالمال، فهو أضعف أنواع الصدقة.

ولنا في هذا الحديث عدة وقفات:

(١) ينظر شرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩

(٢) التنزيل هو: الانتقال من الأعلى إلى الأدنى في الوجوه المرادة والتنزيل عكس الترتي نحو: هذا الأمر لا يعجز السلطان ولا

الوزير ، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها د. أحمد مطلوب ٢ / ٣٦٦، ٣٦٧ مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٦م

(٣) والبيت من باب التنويع: وهو ادعاء مسمى اللفظ نوعان : متعارف وغير متعارف على طريق التخيل بأن ينزل ما يقع في موقع

شيء بدلا عنه منزلته وهذا ما يقصد بالتنزيل هنا.

ففي البيت جعل للتحية نوعا آخر غير المتعارف فيها وهو الضرب الوجيع فالمقصود نفي ما صدر به يعني لا تحية بينهم

والتشبيه لا يفيد هذ المعنى بل يعكسه ويفسده بغية الإيضاح ٣ / ١١٧ ، ١١٨

(٤) ينظر فيض الباري على صحيح البخاري لمحمد أنور شاه الكشميري تحقيق محمد بدر ج ٣ ص ١١٤ دار الكتب العلمية

بيروت لبنان ط أولى ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .

(٥) إرشاد الساري ج ٣ ص ٣٨ .

أولها: اختلاف صيغة سؤال الصحابة - رضوان الله عليهم - في المرة الأولى عن الثانية والثالثة، فقالوا أولاً: « فمن لم يجد؟ » وقالوا ثانياً: « فإن لم يجد؟ » وهذا فيما يبدو لي من باب الترقى إذ خلا سؤالهم الأول من التأكيد، وحين أرادوا تكرار سؤالهم أكدوه حتى يبينوا مدى حرصهم على الاستفادة وتحصيل الجواب.

ثانيها: هيمنة التعبير بالفعل المضارع: « يعمل - ينفع - يتصدق - يعين - فليعمل وليمسك » فيه دلالة على وجوب تجدد واستمرار هذه الأعمال، فالعمل الاجتماعي لا بد أن يدوم، وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ.

ثالثها: تأكيد الجواب في الجملة الأخيرة « فإنها له صدقة » بإن واسمية الجملة الدالة على الثبوت والدوام، وتقديم « له » المفيد للاختصاص. أي: له لا لغيره، وكان من الممكن أن ينتهي الحديث عند قوله **p**: « وليمسك عن الشر » ولكن مجيء هذه الجملة يحمل في طياته دالتين: الأولى: ربما تشير الجملة الأخيرة عند الصحابة سؤالاً مفاده هل للمُؤسِك صدقة؟! على سبيل التعجب من عظيم فضل الله وكرمه على عباده، فتأتي هذه الجملة لإزالة هذا التعجب، الثانية: إن هذه الجملة بمثابة التذييل للحديث، فتكون من باب رد العجز على الصدر « لكل مسلم صدقة » « فإنها له صدقة » فيتطابق العجز مع الصدر فتكون خير ختام.

ثم يأتي الحديث الأخير كالنتيجة والخلاصة لما أحدثه الإنسان في الدنيا من الصدقة، وحصاد ثوابها: « إن ظل المؤمن يوم القيامة صدقته » فالحديث الشريف حث على الإنفاق والتصدق في سبيل الله، وذلك ببيان فضل الصدقة يوم القيامة بأن تكون ظلة لصاحبها، وواقية له من عذاب الله، وجنة من هول هذا اليوم العظيم.

جاء الحديث الشريف مبنيًا على التأكيد، فأكد أولاً بإن « إن ظل المؤمن » لأهمية هذا الأمر لأن التوكيد ينظر فيه إلى حال المخاطب، وأحياناً إلى حال المتكلم، وأحياناً أخرى إلى المعنى المتحدث عنه كما في الحديث، وذلك عندما يكون أمراً مهماً، وخطيراً يمس حياة الإنسان، وليس هناك شيء أهم من يوم القيامة، والاستعداد له في هذه الدنيا، فإنك ترى الجملة مع « إن » أحسن، وترى المعنى حينئذ أولى بالصحة وأمكن<sup>(١)</sup>.

وأكد ثانياً بقلب التشبيه، إذ الحديث من التشبيه المقلوب المحذوف الأداة، لأن الأصل أن الصدقة كالظل، في أنه يحميه من أذى الحر يوم القيامة، نحو قوله **p**: « اقرؤوا الزهراوين - البقرة وآل عمران - فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما عمّامتان » ثم قلب التشبيه، فجعل المشبه مشبهاً به، مبالغة كقوله:

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ت محمود شاكر ص ٣٢٠، والتراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني ص ١٨١ عبد الفتاح لاشين دار المريخ للنشر الرياض .

وبدا الصباح كأن غرته

وجه الخليفة حين يمتدح<sup>(١)</sup>

فجعلت الصدقة هي الأصل الذي يقاس عليه، وكأن هذا الظل أمر ملحق بها وموجود بسببها، فمن تصدق بصدقة كانت له في الدنيا سبب نعيم القبر، وتزيل لهب النار منه، وفي الآخرة تقيه من حر يوم الحساب، ومن عذاب الله يوم تدنو الشمس من الرؤوس، ولذا نجد النبي **ﷺ** في حديث آخر يقول: « إن الصدقة لتطفئ عن أهلها حر القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته »<sup>(٢)</sup> والتعبير بالظل في الحديث الشريف إما أن يكون على سبيل الحقيقة، كأن صدقته تُجسّد كالطود العظيم، فيكون في ظلّة حقيقية، أو مجازاً فليس المراد بها ظلّة من حر الشمس فقط؛ بل تمنعه من جميع المكاره، وتستره من النار إذا واجهته، توصله إلى جميع المحاب، من قولهم: فلان في ظل فلان<sup>(٣)</sup>، أو أن تكون كناية عن طيب العيش، قال الراغب: هو كناية عن نضارة العيش<sup>(٤)</sup>. وبالجمع بين الأحاديث الأربعة، تتم صورة المعنى، وهذا باب ينبغي إحكامه في دراسة الحديث النبوي الشريف، والتدبر في أسراره، لم سكت كل منهما عما سكت، وذكر ما ذكر؟ وهذا باب صعب المراس.

### المبحث الثاني: من أسرار التناسب والتكامل في أحاديث الجار

- ١- عن أبي شريح أن النبي **ﷺ** قال: « والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه »<sup>(٥)</sup>
- ٢- عن أبي هريرة **رضي الله عنه** قال: قال رسول الله **ﷺ**: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »<sup>(٦)</sup>.
- ٣- عن أبي هريرة **رضي الله عنه** قال: قال رسول الله **ﷺ**: « من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن، أو يُعلّم من يعمل بهن، فقال أبو هريرة: فقلت: أنا يا رسول الله، فأخذ يدي

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى الكاشف عن حقائق السنن ٥ / ١٥٦٠ - ١٥٦١، ت: عبد الحميد هندراوي، مكتبة نزار الباز، ومكة المكرمة - الرياض، ط أولى ١٩٩٧.

(٢) الترغيب والترهيب ٢ / ١٦ والتشبيه المقلوب تأريخاً ودراسة ١٧٤ رسالة ماجستير كلية اللغة العربية جامعة الأزهر للباحث: إسماعيل رفعت السوداني ٢٠٠٦ م.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٢ / ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٤) تاج العروس مادة ظلل.

(٥) أخرجه البخاري - كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، ومسلم - كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار.

(٦) أخرجه البخاري - كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ومسلم - كتاب الإيمان، باب

الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير وذلك كله من الإيمان.

فَعَدَّ خَمْسًا ، وقال : اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»<sup>(١)</sup>.

٤- عن عمر بن الخطاب  $\tau$  قال : سمعت رسول الله  $\rho$  يقول : « لا يشبع الرجل دون جاره »<sup>(٢)</sup>.

٥- عن أبي هريرة  $\tau$  أن رسول الله  $\rho$  قال : « لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة في جداره » ثم يقول أبو هريرة : مالي أراكم عنها معرضين ، والله لأرمين بها بين أكتافكم »<sup>(٣)</sup>.

٦- عن أبي هريرة  $\tau$  قال : قيل للنبي  $\rho$  : يا رسول الله إن فلانة تقوم الليل ، وتصوم النهار ، وتفعل ، وتتصدق ، وتؤذي جيرانها بلسانها ، فقال رسول الله  $\rho$  : « لا خير فيها هي من أهل النار » قال : وفلانة تصلي المكتوبة وتتصدق بأنوار من الأقط ولا تؤذي أحدا ، فقال رسول الله  $\rho$  : « هي من أهل الجنة »<sup>(٤)</sup>.

٧- عن أنس قال : قال رسول الله  $\rho$  « ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة من أهل آبيات جيرانه الأذنين أنهم لا يعلمون منه إلا خيرا ، إلا قال الله - تعالى وتبارك - قد قبلت قولكم ، أو قال : شهداكم ، وغفرت له ما لا تعلمون »<sup>(٥)</sup>.

### بيان وجه التكامل والتناسب

في الأحاديث الشريفة تكامل وتناسب بديع ، وبيان ذلك : أنه  $\rho$  إذا نفى الإيمان عن الذي لا يأمن جاره بوائقه ، فمن باب أولى أن يثبت الإيمان لمن لا يؤذي جاره ، وذلك بأن يحسن إليه ، ومن صور هذا الإحسان ألا يشبع الرجل دون جاره ، وألا يمنع من أن يغرز خشبة في جداره ، ثم تأتي الخاتمة لتكون عامة للذي يؤذي جيرانه ، وللمحسن إليهم ، فمن يؤذي جاره ولو بلسانه فهو من أهل النار ، وإذا شهد له أربعة من جيرانه الأقربين أنهم لا يعلمون عنه إلا خيرا ، وذلك بسبب إحسانه إليهم ، فيغفر له فيكون من أهل الجنة ، ولمن شاء أن ينعم النظر فليدخل أحاديث أخرى تترايط ، وتشابك مع هذه الأحاديث ، فتكون صورة كلية وضيئة.

(١) أخرجه الترمذي في سننه - كتاب الزهد ، باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس ، وهو في المسند برقم ٨٠٩٥ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (أرثووط) : ١ / ٤٤٨ ، والحاكم في المستدرک : ٤ / ١٨٥ برقم ٧٣٠٨ .

(٣) صحيح البخاري : كتاب المظالم - باب لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة في جداره ، صحيح مسلم : كتاب المساقاة - باب غرز الخشب في جدار الجار .

(٤) المسند (أرثووط) : ١٥ / ٤٢١ ، ٤٢٢ ، شعب الإيمان : ١٢ / ٩٤ ، والمستدرک ر / ١٨٣ .

(٥) المسند رقم ١٣٥٤١ ، وصحيح الترغيب والترهيب برقم ٣٥١٥ .

والأحاديث السبعة يجمعها رباط واحد، هو بيان حق الجار وفضله، وأول هذه الحقوق - فيما أرى - أن يأمن الجار شرور جاره، ولذا كان قوله ρ : « والله لا يؤمن ... الذي لا يأمن جاره بوائقه » مقدم عندي في هذا الباب، غير أن أحد الباحثين في حقوق الجار يرى أن هذا الحديث هو معنى متقدم في الإيذاء بالجار، أسس له بمعان أخرى، مثل النهي عن أذيته، والحث على إكرامه، وعدم احتقار هديته، وأحقيته بالشفعة ... ، لأن المعنى الذي أقسم عليه النبي ρ وكرر قسمه - مبالغة في التأكيد - إنما هو معنى تجاوز الأمور المادية أو ما لوحظ فيها جنس المادة إلى أمر معنوي ونفسي عظيم وهو الأمان. واستقي ذلك أيضا من وراء تعريف المسند إليه بـ « الذي » وذلك أن « الذي » الأصل فيها أنك لا تصلها إلا بجملة من الكلام قد سبق من السامع علم بها، وأمر قد عرف له، إما علم تفصيلي أو إجمالي، فالمعنى الخطير في الحديث بناء على هذه المسألة، أن النبي ρ عرف هذا الرجل الذي لا يأمن جاره بوائقه، بـ « الذي »؛ ختما لمعاني إكرام الجار والحث على الإحسان إليه، وعدم إيذائه، وكأن النبي ρ يوعز إليهم من طرف خفي : أو لست قد حدثتكم كثيرا عن حق الجار، ووجوب إكرامه، وعدم إيذائه ؟ إذا فأنتم تعرفون وتعلمون قبح من يؤذي جاره ، وعظم ذنبه، وأنتم منه على علم وفير<sup>(١)</sup>.

والذي يظهر لي - والله أعلم - أن هذا المعنى ذكر ابتداءً، ليضع حدا فاصلا من أول الأمر لمن تسول له نفسه في إحداث الشرور بغيرانه، حتى لا يكون هناك مجال للتهاون والتراخي في حقوق الجار، والسبب في تقديمه فيما أرى عدة أمور:

**منها :** تأسيا بالمنهج القرآني في تقديم الأمان على غيره، قال تعالى : [ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ] [ سورة النحل آية ١١٢ ] ، وبيان الحق تعالى أن أشد أنواع الابتلاء هو الخوف، قال تعالى : [ وَلَنْبَلُوكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ ] [ سورة البقرة آية ١٥٥ ] والخوف يتماشى مع عدم الأمان، فإذا قدم القرآن نعمة الأمان، كان تقديمه في الحديث ابتداء من باب أولى.

**ومنها :** أنه يجب تقديم نعمة الأمان على كل شيء؛ لأن الذي لا يأمن جاره بوائقه كيف يطيب له العيش، وأن يأكل من أكله، أو يشرب من شربه، بل يتعدى ذلك إلى أن يطلب منه أن يضع خشبة في جداره، كل هذه المعاني وغيرها يجب أن يؤسس لها بمعنى واحد هو الأمان، فإذا أمن الجار جاره سهل معه أن يتعامل وأن يأكل ويشرب ويطلب.

**ومنها - أيضا - :** أن المعنى المتقدم الذي يفيد اسم الموصول « الذي »، إما أن يكون قوليا، أو فعليا، وهذا الجار الذي يؤذي جاره، ولا يجعله يأمن شروره لمشاهد للجميع رأي العين، فلا يحتاج إلى

(١) حق الجار وفضله في البيان النبوي الشريف دراسة بلاغية د. وليد إبراهيم حمودة ص ٥٧٤ بحث مستل من مجلة كلية اللغة

العربية بالمنصورة العدد الثالث والثلاثون الجزء الثالث ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤ م .

تعريف ولا ذكر سابق، كما كان فعل زوجة عم النبي  $\rho$  شاهدا حيا ودليلا ماثلا أمام الصحابة، لا يحتاج إلى ذكر أو تنبيه.

ومن الممكن أن نقسم الأحاديث السبعة إلى : مقدمة، وشرح، وخاتمة أو نتيجة.

### تناسب المقدمة

تتألف المقدمة من الأحاديث الثلاثة الأولى، وهذه الأحاديث الثلاثة بناؤها لفظ الإيمان : ( لا يؤمن - يؤمن - مؤمنا ) . فالحديثان الأول والثاني يركزان على نفي صفة الإيمان عن الذي لا يأمن جاره بوائقه وإثباتها لمن لا يؤدي جاره انظر إلى تناسب الألفاظ ( يؤمن - الذي لا يأمن جاره بوائقه ) .

ولا بد هنا من بيان وجه المناسبة في نفي الإيمان مع التأكيد بالقسم المكرر ثلاثا في الحديث الأول « والله لا يؤمن ... » ومجيء الإيمان بصفة الإيجاب في الحديث الثاني « من كان يؤمن ... » إن نفي الإيمان مرتبط بأمر جليل، وهو عدم الأمن والخوف . وعدم الأمن - كما ذكرت - من أشد أنواع الابتلاء، ناهيك عن تقييد عدم الأمن بالبوائق، فكلمة البوائق هي الدواهي والغوائل والشور، ومن معانيها القتل، والباطل، والبواق من كل شيء أشده<sup>(١)</sup>، وجاءت الكلمة في القرآن الكريم في موضعين لا ثالث لهما، قال تعالى: [ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ] [ سورة الكهف آية ٥٢ ] وقال تعالى: [ أَوْ يُوقِنُ أَنَّ مَا كَسَبُوا ] [ سورة الشورى آية ٣٤ ] وهي لا تعني عند جل المفسرين إلا الهلاك، وجهنم، أو النار، أو عداوة هي في الشدة نفس الهلاك<sup>(٢)</sup>.

فالأمر جد خطير ناسب معه نفي الإيمان المؤكد بالقسم ثلاثا « والله لا يؤمن والله لا يؤمن، والله لا يؤمن »

أما الحديث الثاني « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ... » الأمر فيه أقل حدة وخطورة، إذ أن كلمة الأذى تعني الضرر، غير الجسيم وفي القرآن [ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى ] [ سورة آل عمران آية ١١١ ] ، والعيب وإماطة الأذى عن الطريق صدقة، وهو ما يؤدي فيها كالشوك والحجر والنجاسة ونحوها، فالأذى هو الشيء البسيط أو الضرر غير الجسيم، ولذا لم يستدع نفي الإيمان أو القسم السابق، فقال  $\rho$  : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ... » أي من ثبت وتحقق واستقر في قلبه الإيمان فلا يؤدي جاره.

ثم نجد تصعيدا في معاني الإيمان، الذي هو المطلوب الأساسي من إكرام الجار، حيث اكتفى الحديث الأول بقوله  $\rho$  « لا يؤمن »، بينما قيد الحديث الثاني بلفظ الجلالة واليوم الآخر « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر »، والذي يظهر أن في إثبات لفظ الجلالة ههنا إعلاء لمصدر التقديس، وذكر

(١) ينظر لسان العرب وتاج العروس والمعجم الوسيط مادة ( وبق ) .

(٢) ينظر الفخر الرازي ٢١ / ٤٧٤، تفسير أبي السعود ٥ / ٢٢٩، والتحرير والتنوير ١٥ / ٣٤٥، والبيضاوي ٥ / ٨٢

للمهابة والإجلال، والسر في ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر من بين سائر ما يجب الإيمان به، إشارة إلى المبدأ والمعاد، يعني إذا آمن بالله الذي خلقه، وأنه مجازيه يوم القيامة، لا يحدث أي أذى لجاره، ثم إن الإيمان بهما ينتظم الإيمان بغيرهما؛ لأن من آمن بالله - تعالى - علم أنه محاسبه ومجازيه على الحسنات والسيئات ومن آمن بيوم يحيا فيه الناس جميعا وتعرض فيه الأعمال، طمع في الثواب بالمسارعة إلى الخيرات، ونفر من العقاب باتقائه الشرور<sup>(١)</sup>.

ولسائل أن يسأل عن سر تخصيص اليوم الآخر بالذكر دون غيره، مع أن من متطلبات الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر، والجواب: أن في ذكر اليوم الآخر ههنا مع ما فيه من الإشارة إلى المبدأ والمعاد، بيان عظم الإيمان بالغيب وهو اليوم الآخر، وفيه إشارة من طرف خفي تؤسس لما يأتي من أحاديث خاتمة عن جزاء المحسن إلى جاره، والمسيء إليه وهو مما لا يكون إلا في ذلك اليوم الآخر، فإذا آمن به، آمن أن من أحسن إلى جاره من أهل الجنة، ومن أساء ولو بلسانه فهو من أهل النار.

كما أن في ذكر الإيمان باليوم الآخر مناسبة لهذه الأعمال؛ لأنها أعمال يعترها كثير من الستر والخفاء، فإبداء الجار قد يكون بما لا يطلع عليه غيره، أو لا يشعر به سواه؛ لأنه قد يكون أذى نفسيا، مثل ما سبق من معنى عدم الأمن، وكذا إكرام الجار يكتنفه الخفاء<sup>(٢)</sup>، كما فيه من الإشارة إلى ستر أعمال الإحسان إلى الجيران وإكرامهم حتى لا يحدث لهم أدنى شعور بالخرج، فيجب أن تكون في خفاء، وستر لا يطلع عليها أحد سواهما، وأن يكون انتظار الأجر والثوبة من الله لا من غيره.

كما أن الداعي من وراء تأخير حديث الإحسان على الإيمان «أحسن - مؤمنا» بخلاف الحديثين السابقين: «لا يؤمن - الذي لا يأمن جاره بوائقه»، «من كان يؤمن... فلا يؤذي جاره» ذلك لأن الإحسان أعلى درجات الإيمان، قال الراغب: «والإحسان يقال على وجهين: أحدهما الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان، والثاني: إحسان في فعله وذلك إذا علم علما حسنا، أو عمل عملا حسنا، والإحسان أعم من الإنعام، قال تعالى: [إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ] [سورة الإسراء آية ٧] وقوله تعالى: [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ] [سورة النحل آية ٩٠] فالإحسان فوق العدل، وذلك أن العدل هو أن يعطي ما عليه، ويأخذ ما له، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد على العدل، فتحري العدل واجب، وتحري الإحسان ندب وتطوع، وعلى هذا قوله تعالى: [وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ] [سورة النساء آية ١٢٥] ، ولذلك عظم الله تعالى ثواب المحسنين، فقال تعالى: [وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ] [سورة العنكبوت آية ٦٩] وقال تعالى: [إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ] [سورة البقرة آية ١٩٥]<sup>(٣)</sup>، وهذا أعم من الأمر

(١) ينظر شرح الكرماني ٢١ / ١٧٠، والأدب النبوي ١١٩، وحق الجار وفضله ٥٨١ .

(٢) ينظر حق الجار وفضله ٥٨١ .

(٣) المفردات: في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ١٢٦- ت: محمد سيد كيلاني دار المعرفة بيروت (بدون).



بإكرام الجار، والنهي عن إيذائه فهو أعلى مرتبة، وكأنه ρ يتدرج بصحابته تعليماً لأتمته كيف يجب أن تكون معاملتك مع جارك، وصولاً إلى أعلى مرتبة وهي الإحسان بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك.

فالحديث جعل الحب للناس كافة، وخص الجار بفعل الإحسان إشارة إلى أن حال المسلم مع جيرانه ينبغي أن يكون في مرتبة أعلى مما هو عليه مع عامة الناس<sup>(١)</sup>.

ومن الملاحظ مجيء لفظ الإيمان في الحديثين الأولين بلفظ المضارع: « لا يؤمن - يؤمن » أي من يستمر على عدم الإيمان من لم يأمن جاره بوائقه، ومن استمر وتجدد إيمانه يجب أن يستمر على عدم إيذاء جاره، ولذا يقول الزرقاني: « وعبر بالمضارع هنا وفيما بعده قصداً إلى استمرار الإيمان وتجدده بتجدد أمثاله وقتاً فوقتاً؛ لأنه عرض لا يبقى زمانين وهذا من خطاب التهييج، من قبيل قوله تعالى: [ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ] [ سورة المائدة آية ٢٣ ] أي أن ذلك من صفة المؤمن، وأن خلافه لا يليق بمن يؤمن بذلك، ولو قيل: لا يحل لأحد؛ لم يحصل هذا الغرض<sup>(٢)</sup>.

أما في الحديث الثالث جاء لفظ الإيمان بصيغة اسم الفاعل: « مؤمناً » أي مؤمناً مستقراً وثابتاً في قلبه الإيمان بالله؛ لأن هذا هو باب الإحسان، وهذا يدل على أن إحسان المسلم إلى جيرانه يعود فضله عليه، ويرتد إحسانه إليه، وهو ههنا الشهادة له بكمال الإيمان<sup>(٣)</sup>.

ومما يلفت الانتباه في هذه الأحاديث الثلاثة مجيء الضمير المضاف إلى الجار في الحديث الأول والثاني ضمير غيبة، « لا يأمن جاره ، فلا يؤذي جاره »، ومجئ الثالث بكاف الخطاب مضافاً إلى الجار « أحسن إلى جارك »، ولعل السر في ذلك - والله أعلم - أن المقام في الأولين مقام فيه تعريض بالدم، بذكر عدم الأمان، والأذى، فكأن الجار الذي لا يأمن جاره بوائقه، ويؤذيه ليس أهلاً في هذه الحالة للخطاب ولا يستحق أن يوجه له الكلام مباشرة عن طريق الخطاب، ولما كان المقام للإحسان خوطب مباشرة تشريفاً وتكريماً له، ولحضوره البين في هذه العملية، جاء الحديث الثالث مخاطباً إياه « وأحسن إلى جارك » المتصف والمتصق بك، وكان كاف الخطاب ههنا توحى بشدة القرب والاتصال.

### تناسب الشرح

يتألف الشرح من حديثين: الرابع والخامس:

عن عمر بن الخطاب  $\tau$  قال: سمعت رسول الله  $\rho$  يقول: « لا يشيع الرجل دون جاره »  
عن أبي هريرة  $\tau$  أن رسول الله  $\rho$  قال: « لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة في جداره .... »  
إن التكامل والتناسب بين هذين الحديثين واضح جلي في المعاني والألفاظ:

(١) ينظر حق الجار وفضله ٥١٧ .

(٢) شرح الزرقاني على الموطأ: ٩ / ٤٧٦ ت: طه عبد الرؤوف سعد - مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط أولى ١٤٢٤ - ٢٠٠٣ .

(٣) ينظر حق الجار وفضله ٥١٧

## التكامل في المعاني:

فالحديث الأول منهما إرشاد وتوجيه للمسلمين إلى أن يتفقدوا أحوال جيرائهم، وهذا الحديث يؤسس للحديث الثاني من ناحية تبادل المنافع والتعاون بين الجيران، وقد استدلل القائلون بأن النهي في حديث غرز الخشبة في الجدار هو للندب بهذا الحديث، وقالوا: « إن الأوامر والنواهي في مثل هذه الأحاديث محمولة على الندب وحسن المجاورة، لا على الوجوب »<sup>(١)</sup>.

والحديث الثاني دعوة إلى تبادل الانتفاع والتعاون بين الجار وجاره حتى لو تنازل أحدهما عن شيء من ملكه للآخر، مما يدل على تبادل الحب والإحسان، والاستجابة لأوامر الدين في إكرام الجيران<sup>(٢)</sup>. وكأنه  $\rho$  يتدرج بالصحابة، ويربيهم على التعامل وإكرام الجار شيئاً فشيئاً، فيأمر أولاً: بتفقد أحوالهم، وعدم تركهم جيعاً وهم شعبي، ثم ينتقل إلى ما هو أعلى من ذلك درجة وأعظم، وهو أن يتنازل الجار عن حق من حقوقه الملكية لجاره، درجة أعلى وفضيلة أرقى وأبعد في حقوق الجار.

## التكامل في الألفاظ

أولاً: بناء الحديثين على أسلوب النهي: « لا يشبع »، « لا يمنع »

إذا كان النهي هو طلب الكف عن العمل على جهة الاستعلاء والإلزام<sup>(٣)</sup>، فإن النهي في أول الحديثين: « لا يشبع » يفيد التقريع الشديد، والتوبيخ، والتهديد لمن لم يتفقد أحوال جيرائه، وكفى المعرض عن ذلك أن يسمع قوله  $\rho$  « كم من جار متعلق بجاره يوم القيامة يقول: يا رب سل هذا لم أغلق عني باب، ومنعني فضله »<sup>(٤)</sup> فهذا ظاهر وصريح في الدلالة على عظم الأمر وشدته.

كما أن النهي في قوله: « لا يمنع » فيه نبرة قوية، مما يدل على شدة الأمر وعظمه، وأنه جدير بالامتثال، والاستجابة لرسول الله  $\rho$ <sup>(٥)</sup>، والنهي في الحديثين يظهر شدة حرصه  $\rho$  على ألا يقع المؤمن في مثل هذه الأفعال، ففيه نصح، وإرشاد، وتوجيه، فهو ينصح أمته ويرشدها إلى الابتعاد عن هذه الخصال المعيبة المشينة، ولقد عبر بصيغة النهي لبيان رغبته وحرصه على أن يمتثلوا ويستجيبوا لنصحه، وإرشاده.

ثانياً: اتحاد الحديثين في نوع الفعل، فجاء الحديثان بالفعل المضارع « يشبع »، « يمنع »، وهو لا يكون غيره بعد النهي؛ لأن الفعل المنهي عنه له صيغة واحدة هي المضارعة، لإفادة التجدد والاستمرار، فكما أن حاجة الجار إلى جاره متجددة مستمرة على مدار الأيام والسنين فيجب أن يكون تفقدك لجارك، وتنازلك عن بعض حقوقك له متجدد ومستمر، رحمة ورفقا بهذا الجار المتعلق بجاره.

(١) شرح ابن بطال على صحيح البخاري ٦ / ٥٨٦، ٥٨٧، ت: ياسر إبراهيم - مكتبة الرشد الرياض، ط ثانية ١٤٢٣.

(٢) حق الجار وفضله ٥٢٣.

(٣) علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم المعاني، د. بسويوني فيود ٣٧١ - مؤسسة المختار، ط الثالثة ١٤٣١ - ٢٠١٠.

(٤) حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٦٤٦، وصحيح الترغيب والترهيب ٢٥٦٤، ٢ / ٣٤٦.

(٥) حق الجار وفضله ٥٢٥، ٥٣٩، ٥٤٠.

وتوجيه النهي إلى الشيع، والمنع من الشيء المباح مستكره أيضا، وفيه تعريض بدم ذلك الجار الذي لا يمثل ترك هذه الصفات، « وذلك لأن الشيع وملاً البطن بالطعام غير محمود صحيا ودينيا، فالمؤمن يأكل في معي واحد، وما ملاً ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، وإذا كان لا بد فثلث لطعامه، وثلث لشرا به، وثلث لنفسيه، فإذا كان هذا موقف الدين من الشيع بمعزل عن اعتبار حاجة الجار وجوعه، وفقره، فإن النهي هنا يشتد وقعه، ويبلغ من الزجر مبلغا عظيما»<sup>(١)</sup>.

ثالثا : إسناد الشيع إلى الرجل « لا يشيع الرجل»، وإسناد المنع إلى الجار « لا يمنع جار » إن إسناد الشيع إلى الرجل يرتقى بالتعريض، ويزيد الذم والتوبيخ؛ لأن هذا الصنيع فيه من الدناءة ما يتنافى مع صفات الرجولة الحقة، أي أن الشيع دون الجار لا يكون ولا يحدث ممن اتصف بكمال الرجولة، إذ من موجبات الرجولة أن تتفقد جيرانك أشبعوا أم جاعوا؟.

وإسناد المنع إلى الجار « لا يمنع جار »؛ لأنه حين تعدى الأمر من مجرد الإطعام والأمور البسيطة إلى أمر هو جد خطير، أن يتنازل الرجل عن حق من حقوقه الملكية لجاره، كان التعبير بالجار مشعر بوجوب المسارعة والامتنال، فهو جارك الذي يضاف إليك، ويعرف بك وتعرف به، فكأنهما واحد في الذات والملكية، وقد أكد الجناس هذا المعنى « جار جاره » وفيه من الإشارة إلى أنه إذا كان جارك في حاجة إليك اليوم، فأنت في حاجة إليه غدا.

ولقد وردت بعض الروايات بالرجل، ففي المسند « لا يمنعن رجل جاره ... »<sup>(٢)</sup> فيكون بين الحديثين تماثلا وتشابها وتكاملا كبيرا.

والسر من وراء تخصيص هذه الصفة بالذات، وهي عدم منع الجار لجاره أن يضع خشبة في جداره، أرى - والله أعلم - أنه مع ما فيه من دعوة إلى التسامح والتنازل والتعاون بين الجيران، فيه إخبار بالغيب عنه  $\rho$ ، وكأن النبي  $\rho$  حاضر معنا مشاهد لواقعنا، ولما نحن فيه الآن، وما يقع بين الجيران من التناحر والتشاجر في حالة بناء الجار ملاصقا لجاره، وما يحدث بينهما من منازعات قد تصل إلى حد القتل أحيانا، بسبب وضع خشبة أو نحوها على جدار الجار، أو أي تعدي بسيط لا يؤثر بقصد أو غيره، وكأن النبي  $\rho$  يعلم بمجيء هذا الزمان، فقال: « لا يمنع جار جاره أن يعرز خشبة في جداره »، نوع من السمو في الأخلاق، والتراحم بين الجيران، والسبب الأكيد من وراء حث النبي  $\rho$  على حقوق الجار، والتنبيه إليها مرة بالتفصيل وأخرى بالإجمال، وقوله  $\rho$  : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »<sup>(٣)</sup>، هو ذلك القرب والاتصال بين الجيران، وهذا القرب والاتصال هو أكثر عرضة للمشاكل والخلافات، فهو تنبيه لكل جار بما عليه تجاه جاره من حقوق وواجبات، وتنظيم لحياة المجتمع المسلم،

(١) حق الجار وفضله ٥٤٠ .

(٢) تهذيب الآثار للطبري ٢ / ٧٧٦ - ت : علي رضا ، دار المأمون للتراث - دمشق ، ط أولى ١٤١٦ - ١٩٩٥ .

(٣) البخاري كتاب الأدب - باب الوصاة بالجار، ومسلم : كتاب البر - باب الوصية بالجار والإحسان إليه .

وبيان لفضل هذا الجار في الآخرة، فليحرص كل منا على حسن معاملة الجار وإعطائه حقه، أو لينعم عليه من فضله.

كما أن في التعبير بالمضارع « يغرز » تصويراً لهذا المشهد، وأنه أمر يسير لا تستثقله إلا النفوس المريضة، وفي إشار هذه المادة : « غرز » دون غيرها مثلاً كوضع ؛ لأنها تفيد التمكن والاستقرار، إذ أصل المادة يدور حول الإدخال، والاستقرار، والتمكن، ففي اللسان : « غرز الإبرة في الشيء غرزا: أدخلها، وكل ما سُمِّرَ في شيء فقد غرز، ومنه غرزت الجرادة ذنبها في الأرض أي : أثبتت ذنبها في الأرض لتبيض<sup>(١)</sup>»، فليس المقصود أن يسمح الجار لجاره بوضع خشبة في جداره على سبيل الاستحياء؛ بل المقصود أن يتركه على صفة التمكن والاستقرار بما يفهمه التعبير بالغرز.

والأصل في « غرز » أن يتعدى بالباء، قال العيني: وقوله: « أن يغرز، أي بأن يغرز<sup>(٢)</sup> »، فجعل تعدي الفعل إليه بالباء، وفي حذف الجار وتعدي الفعل بنفسه إرشاد إلى الجار أن يتلطف بجاره في هذا الأمر، وأن يتركه يفعل ذلك في لين ورفق، دون تضيق أو تنكيد إلا فيما يضر به<sup>(٣)</sup>.  
ومن الممكن أن يتكامل مع هذين الحديثين أحاديث كثيرة تبين وتفصل أوجه الإحسان إلى الجار، ومنها قوله ρ : « يا أبا ذر إذا طبخت مرقا فأكثر ماءه، ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف<sup>(٤)</sup>»، وقوله ρ : « يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة<sup>(٥)</sup>»

### تكامل الخاتمة

تأتي الخاتمة جامعة مانعة، لتبين عظيم فضل الجيران يوم القيامة، محسنهم ومسيئهم، فمن يؤذي جاره ولو بلسانه فهو من أهل النار، ومن يشهد له أربعة من جيرانه الأقربين بخير فهو من أهل الجنة، وذلك بيّن في حديثين :

أولهما : « عن أبي هريرة  $\tau$  قال: قيل للنبي ρ : يا رسول الله إن فلانة تقوم الليل، وتصوم النهار، وتفعل وتتصدق، وتؤذي جيرانها بلسانها، فقال رسول الله ρ : « لا خير فيها هي من أهل النار » قال: وفلانة تصلي المكتوبة وتتصدق بأثوار من الأفض، ولا تؤذي أحدا، فقال رسول الله ρ : هي من أهل الجنة ».

(١) لسان العرب و تاج العروس مادة غرز .

(٢) عمدة القاري : ١٣ / ٩

(٣) حق الجار وفضله ١٠٩

(٤) صحيح مسلم : كتاب البر - باب الوصية بالجار والإحسان عليه، سنن ابن ماجه : الأطعمة - باب من طبخ فليكثر ماءه

(٥) صحيح البخاري : كتاب الأدب - باب لا تحقرن جارة لجارتها، وصحيح مسلم : كتاب الزكاة - باب الحث على الصدقة ولو

بالقليل .

ثانيهما : عن أنس قال : قال رسول الله  $\rho$  : « ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة من أهل آيات جيرانه الأذنين أنهم لا يعلمون منه إلا خيرا، إلا قال الله تعالى وتبارك : قد قبلت قولكم - أو قال شهادتكم - وغفرت له ما لا تعلمون ».

الحديث الأول منهما يطل بظلاله على الحديث الثاني من هذه المجموعة : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره » ، انظر إلى قوله  $\rho$  : « فلا يؤذي جاره » ، وقوله « تؤذي جيرانها - ولا تؤذي أحدا » ، الإيذاء نفيه وإثباته هو محور الحديثين، والكلمة الجامعة التي سيق من أجلها الكلام، فأولهما ينهى عن أذى الجار، والآخر يبين جزاءه في الآخرة أن صاحبه من أهل النار.

فهذه المرأة كانت قوامه صوامه متصدقة، ولكن ذهب بكل هذه الأعمال عمل واحد هو إيذائها لجيرانها، بيانا لعظم جرم هذا الفعل، وتقبيحا له، وفي عطف هذه الصفة « وتؤذي جيرانها » على الصفات الحسنة السابقة من صيام وقيام وصدقة مشعر أن هذا الفعل كان مماثلا ومساويا للفعل السابق في تكراره، واستمراره، بما يفهمه التعبير بالمضارع « تؤذي »، وكأنه أصبح عادة، وديدنا مستمرا لهذه المرأة، فلم يحدث منها عرضا، بل كان متكررا المرة تلو المرة فكانت من أهل النار.

وفي جمع جيرانها دليل على عموم أذاها لجميع الجيران، فلا يسلم منها أحد، وقولهم: « بلسانها » يفيد أن أقل أنواع الأذى للجيران، ولو باللسان بأن من يتحدث عن جيرانه بسوء على سبيل الازدراء والتحقير من شأنهم جزاؤه جهنم، يقول صاحب الفوائد: « يجوز أن يكون النبي  $\rho$  علم من التي تؤذي جيرانها إعجابا بعملها من صوم نهارها وقيام ليلها، وأنها كانت تؤذي جيرانها ازدراء بهم، وتصغيرا لهم، وتحقيرا إياهم برؤية الفضل لها عليهم، فاستوجبت النار بذلك »<sup>(١)</sup>، وهو ما يطل بظلاله على حديث آخر، ففي حديث معاذ  $\tau$  عن النبي  $\rho$  : « وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم »<sup>(٢)</sup>.

ثم يأتي الجزء في جملتين سريعتين شديديتين في الوقع والتعبير « لا خير فيها هي من أهل النار » نفيا لصفة الخيرية على عمومها؛ لأن خيرا نكرة في سياق النفي أفادت عموم نفي جميع الخير عنها، وكان من الممكن أن يكتفي  $\rho$  بهذه الجملة « لا خير فيها »، ولكن لما كان الأمر يحدث من امرأة تفعل من صفات الخير الكثير من صيام وصدقة وقيام، أعاد وأكد الكلام بجملة أخرى قاطعة، ومؤكدة؛ لنفي أدنى خيرية عنها « هي من أهل النار » حتى لا يظن أحد أن أفعالها الصالحة قد تشفع لها، وفصلت هذه الجملة عن سابقتها بكمال الاتصال، مؤكدة باسمية الجملة الدالة على ثبوتها واستقرارها في نار جهنم،

١ - (١) بحر الفوائد، للكلابادي - أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلابادي البخاري الحنفي ١ / ١٥٨ ، ت :

محمد حسن محمد حسن إسماعيل دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣٦ / ٣٤٥ ، والترمذي في سننه - كتاب الإيمان باب ما جاء في حرمة الصلاة .

والتعبير بالأهل ههنا مشعر بأن دخولها النار كان على سبيل الاستحقاق، ولذا يقال: « هو أهل لكذا: مستحق له »<sup>(١)</sup>.

ثم يأتي شطر الحديث الآخر « وفلانة تصلي المكتوبة ... ولا تؤذي أحدا » على سبيل العموم، يدخل معه الجار وغيره، وكأن هذا هو حالها مع جميع الناس، فمن باب أولى أن يكون هذا هو الحال مع الجيران، ولذا استحقت أن تكون من أصحاب الجنة المعروفين فيها.

والحديث الآخر في الخاتمة: « ... فيشهد له أربعة من أهل أبيات جيرانه ... »، يطل بظلاله على الحديث: « أحسن إلى جارك تكن مؤمنا » وذلك لأن شهادة هؤلاء الجيران له بالخيرية لا تكون إلا بسبب إحسانه إليهم، وتفقدته إياهم، وتنازله عن بعض حقوقه لهم، كأن يضعوا خشبة في جداره، أو ما في نحوها من أمور الخير وأبوابه الرحبة الوسيعة.

والحديث من أوله لآخره قائم على أسلوب القصر، طريقه النفي والاستثناء، وهو « طريق لا يتأتى إلا في المعنى الذي يحتاج إلى فضل تقرير وتوكيد، فلا تلقى هذا الطريق إلا تلقاه النبرة العالية، والنغمة الحاسمة، والتعبير الشديد »<sup>(٢)</sup>.

ونقف في هذا الحديث مع الجملة المنفية، وعموم الفعل المضارع فيها « يموت - يشهد - يعلمون » المؤذن بتصوير هذا المشهد الرهيب، وكأن هذه هي حالة الاحتضار بما أفاده التعبير بالمضارع « يموت » أي حال موته، ومسارة جيرانه بالشهادة له بما تفيد الفاء في « فيشهد » من سرعة الترتيب والتعقيب، مع تكرار هذه الشهادة في حق هذا الجار، والسبب في سرعة استجابتهم بالشهادة له هو علمهم منه الخير، والتعبير بالعلم مشعر بتمكن معرفتهم بصفات الخيرية، وملاستهم إياها، وفي التعبير بـ « منه » دون « عنه » يفيد معانيتهم وانتفاعهم بهذا الخير، وكأن خيره كان يصل منه إليهم.

كما أن في قوله ρ: « من أهل أبيات جيرانه » دون « جيرانه » مباشرة على الرغم من تتابع الإضافات - التي لم تحدث ثقلا في البيان - لتضفي زخما دلاليا على معنى الترابط والامتزاج بين أقرب الجيران، فكأن الميت المشهود له كان واحدا من أهل هذه الأبيات، انظر إلى التعبير بالأهل الذي يخالف الآل في كون الأول تبقى من جهة النسب، فنقول أهل الرجل لقربته الأدين<sup>(٣)</sup>، ولا حظ التعبير بـ (أبيات) - جمع بيت - ولعله يشعر بأفضلية تعدد الشهود فيكونون من عدة أبيات، لا من بيت واحد، حتى يحث المسلم على إكرامه لجميع جيرانه، ثم وصف الجيران في النهاية بالأدين، أي أقرب جيرانه له؛ لأنهم المخالطون له، العالمون بحاله أكثر من غيرهم<sup>(٤)</sup>.

(١) المعجم الوسيط مادة (أهل) .

(٢) دلالات التراكيب د. محمد محمد أبو موسى ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) الفروق اللغوية: ٢٣٣ .

(٤) حق الجار وفضله ٤٦٦ ، ٤٦٧ .

وفي دلالة العدد أربعة مع وروده في أحاديث أقل من ذلك، يقول العيني: « فإن قلت: ما الحكمة في اختلاف هذا العدد، حيثما جاء أربعة، وثلاثة، واثنان؟ قلت: لاختلاف المعنى، لأن الثناء قد يكون بالسماع الفاشي على الألسنة، فاستحب في ذلك التواتر والكثرة، والشهادة لا تكون إلا بالمعرفة بأحوال المشهود له، فيأتي في ذلك أربعة شهداء، لأن ذلك أعلى ما يكون من الشهادة ... ولهذا لم يسألوا النبي  $\rho$  عن الواحد، وذلك أن المقام مقام عظيم فلا يكتفى فيه بأقل من النصاب»<sup>(١)</sup>.

وفي تخصيص الأربعة فيه إرشاد، وتوجيه، وصلاح للمجتمع الإسلامي، وغناه بعضه ببعضه فلا يكون في حاجة إلى غيره، وذلك إذا التزم كل جار مستطيع بتعهد أربعة من جيرانه - وهو أقل العدد وأغناهم من فضله، ومما أعطاه الله، فإن ذلك صلاح لحال الأمة، إذ يكفي أن يكون في أمة الإسلام الربع أو ما هو دونه مستطيع، إذ باستطاعتهم وصلاح حالهم، صلاح حال الأمة جميعا.

ثم تأتي الجملة المقصور عليها: « « إلا قال الله تعالى وتبارك: قد قبلت قولكم - أو قال شهادتكم -، وغفرت له ما لا تعلمون » على سبيل القصر الحقيقي التحقيقي، لأن القول صادر من الذات العليا، وهو الله  $Y$ ، والجملة تفيد تأكيد مغفرة الله تعالى لهذا الجار بأمور شتى، فأكدت الجملة بـ « قد »، والفعل الماضي في صدرها « قبلت » ليفيد تحقق قبول هذه الشهادة، ثم يأتي التعبير بالقول « قولكم » دون شهادتكم إيماء إلى قبول القول فقط، وكأنهم بمجرد قولهم في حق هذا الجار خيرا قُبِلَ منهم، وكان من الممكن أن ينتهي الحديث ههنا، ولكن عطف عليه جملة أخرى « وغفرت له ما لا تعلمون » لكمال الاتصال تأكيدا لهذا القول، وشهادة بغفران جميع ذنوبهم.

### المبحث الثالث : من أسرار التناسب والتكامل في أحاديث الصدق

- ١- عن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - قال : حفظت من رسول الله  $\rho$  « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة »<sup>(٢)</sup>.
- ٢- من قول أبي سفيان بن حرب  $\tau$  في حديثه الطويل في قصة هرقل، إجابة عن سؤال هرقل : « فماذا يأمركم ؟ » « ويأمرنا بالصلاة والصدق »<sup>(٣)</sup>.
- ٣- عن أبي خالد حكيم بن حزام، قال : قال رسول الله  $\rho$  : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما »<sup>(٤)</sup>.

(١) عمدة القاري: ٨ / ١٩٧.

(٢) أخرجه البخاري - كتاب البيوع باب تفسير المشبهات، والترمذي في سننه ٦٦٨/٤ .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٢٠٠/٤ ط الرسالة، والبيهقي في السنن الكبرى - كتاب السير باب إظهار دين النبي  $\rho$  على الأديان.

(٤) أخرجه البخاري - كتاب البيوع باب إذا بَيَّنَّ البيعان ولم يكتما ونصحا، ومسلم - كتاب البيوع باب الصدق في البيع والبيان .

- ٤- عن ابن مسعود  $\tau$  عن النبي  $\rho$  قال: « إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا »<sup>(١)</sup>.
- ٥- عن سهل بن حنيف  $\tau$  أن النبي  $\rho$  قال: « من سأل الله - تعالى - الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه »<sup>(٢)</sup>.

الأحاديث الخمسة تتداخل، وتتشابك، فيأخذ بعضها بحجر بعض، وكأنها رباط واحد لا ينفك، وبيان وجه التناسب ههنا يتأتى من جانبين :

**أولهما:** أن الصدق أساس من أسس أخلاق الإسلام، والسبب في ذلك أنه يبعث على الاستقرار والطمأنينة في النفس، ويدعو إلى مكارم الأخلاق، وجزاؤه في الدنيا يحدث البركة، وفي الآخرة ينال صاحبه الشهادة.

**ثانيهما:** وهو ما أميل إليه، وعليه رتبت أحاديث هذه المجموعة، وبيانه: إذا كان الصدق طمأنينة، والكذب ريبة « فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة »، ترتب عليه أمر الرسول  $\rho$  بالتزامه « ويأمرنا بالصلاة والصدق » وإذا التزم الإنسان أمر نبيه بالصدق بورك له في بيعه « فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما »، وكتب عند الله صديقا، وإذا كتب عند الله صديقا بلغ منازل الشهداء وإن مات على فراشه، فهذا حديث رسول الله  $\rho$  من حيث أتيته وجدته متناسب الأجزاء تام الأركان، تسيل معانيه في تناسق عجيب ، وتناغم بديع.

والحديث الأول في ترتيب هذه المجموعة قوله  $\rho$  « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة »

هذا الحديث بمهد لما يأتي بعده من الأمر بالصدق، والتزامه لأن الإنسان إذا أيقن أن الصدق يحدث سكون النفس بعد انزعاجها ، اطمأنت نفسه فلا تأمر بسوء، تنبئها على أن معرفة الله، والإكثار من عبادته - تعالى - يحقق اطمئنان النفس، فالصدق يوصل إلى دوام العبادة التي توصل إلى الاطمئنان، قال تعالى: [ **أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ] [ الرعد ٢٨ ]، إذا أيقن الإنسان ذلك كان أدعى للقبول، وأوفق للاستجابة .

وجاء الخبر عن النبي  $\rho$ : « فإن الصدق طمأنينة » تعليلا للأمر السابق « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » مرتبط به بالفاء التي تعطفه عليه عطف العلة على المعلول « وكأن هناك كلامين متميزين أحدهما

(١) أخرجه البخاري - كتاب الأدب باب قول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكنوا مع الصادقين" ، ومسلم - كتاب البر والصلة باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله .

(٢) أخرجه مسلم - كتاب الإمارة باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى .



علة للآخر، قامت الفاء بينهما مقام العروة الخارجية»<sup>(١)</sup>، فبناء الأسلوب قام على العلاقات اللفظية الظاهرة.

وأكد الخبر ب « إن » إفادة لقصد تحقق المخبر به، وتقوية مضمون الكلام عند المخاطب وتقريره في نفسه، وإن كان غير منكر ولا شاك حتى يبلغ عين اليقين، ويؤكد عبد القاهر أن « التركيب اللغوي المبدوء بـ « إن » لم يقصد به التأكيد الظاهري، والمعنى الأول المفهوم من اللفظ لغة، وإنما يأتي التوكيد لأغراض يفهمها أهل الذوق، والمتخصصون من ذوي اللغة ، وقد تدقُّ حتى تخفى على بعض العلماء»<sup>(٢)</sup>.

وزيادة في تقرير الحكم، ومبالغة في التأكيد جاءت الجملة « فإن الصدق طمأنينة » جملة اسمية، تفيد الدوام والاستمرار.

والمعنى المفهوم من الحديث : إذا وجدت نفسك ترتاب في الشيء فاتركه فإن نفس المؤمن جبلت على أنها تطمئن إلى الصدق ، وتنفر من الكذب، وإن لم تعلم أن الذي اطمأنت إليه كذلك في نفس الأمر، وإذا جبلت على ذلك فعليك أن تأخذ برغبتها ورهبتها، إذا جربت منها الإصابة ، كما هو شأن كثير من النفوس الصافية.

ولما علم الله أن قلب المؤمن الكامل ذي النفس الذكية المطهرة من رديء أخلاقها يميل ويطمئن على كل كمال، ومنه كون القول أو الفعل صدقا أو حقا، وينفر من كون أحدهما كذبا أو باطلا ، جعل ميله وطمأنينته علامة واضحة على الحِلِّ وانزعاجه ونفرته علامة على الحرام ، وأمر في الأول بمباشرة الفعل، وفي الثاني بالإعراض عنه ما أمكن<sup>(٣)</sup>.

ثم نجد المقابلة البديعية ، تزيد من تأكيد مكانة الصدق ، وترسخه في قلب المؤمن « فإن الصدق طمأنينة » « والكذب ريبة » ، وللتقابل وظيفتان :

**الأولى :** جمالية حيث يكشف الضد عن جمال ضده ويبرزه، وتتضح هذه الوظيفة الجمالية في كثير من مظاهر الوجود كالليل وما فيه من قمر ونجوم، وفي صفات الإنسان، وفي جمال الطبيعة ، فالجمع بين الضدين كثيرا ما يؤدي إلى خلق الجمال في الوجود ، وفي الكلام الفني.

**الثانية :** بيانية، لها علاقة وثيقة ببلاغة الكلام، فالأشياء تزداد بيانا بالأضداد، وذلك أن الضد يستدعي ضده، ويجعله أقرب حضورا بالبال .

(١) دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى ٣١٩ ، ٣٢٠ مكتبة وهبة طبعة ثانية ١٩٨٧م

(٢) التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر د. عبد الفتاح لا شين ١٧٩ دار المريخ السعودية ١٩٨٠م.

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، لابن علان مراجعة محمود حسن ربيع ٢ / ٢٠٥ ، ٢٠٦ مكتبة مصطفى الباي الخليلي بدون.

وقد استخدم المبدعون أسلوب التقابل للإبانة عن كثير من المعاني ، كالتأكيد والتغيير ، فالتقابل أسلوب أصيل في الإبداع، ومنبع من منابعه، فهو يخلق الجمال، ويفجر المعاني، ويفصح عنها ، فتنقاد للفهم، وتستقر بالذهن<sup>(١)</sup>.

وإذا انقاد للفهم، واستقر في الذهن أن الصدق طمأنينة ، كان أمر النبي  $\rho$  بالتزام الصدق « ويأمرنا بالصلاة والصدق » أدعى للقبول، وكأنه هياً النفس ومهد لها، لأن تمتثل لهذا الأمر. والذي يلفت الانتباه في هذا الحديث أن إجابة أبي سفيان عن سؤال هرقل « فاذا يأمركم ؟ » جاءت في جميع ما أمر به  $\rho$ ، قلت : يقول: اعبدوا الله وحده، لا تشركوا به شيئاً ...»، وجاء الجواب عن أمره  $\rho$  بالصلاة والصدق بإعادة الفعل المسئول به « ويأمرنا » بصيغة المضارع ليفيد أن النبي  $\rho$  كان يصدر منه الأمر حالة بعد حالة على سبيل الاستمرار التجديدي، ويفيد - أيضاً - استحضر الصورة، وكأنها ماثلة أمام القارئ يتأملها بعينه، فصيغة المضارع قد زادت المتلقي إحساساً بتصور الحدث، واستحضاره في مخيلته كأنما يراه ، ويعايشه.

فأبو سفيان بسليقته اللغوية كأنه وظف صيغة المضارع بما يخرج بها إلى معنى المفاجأة للمتلقي وإثارة شعوره<sup>(٢)</sup>، وأن هذا الفعل قد صار عادة ودأباً للموصوف  $\rho$  امتثالاً لأمر ربه [ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ \* قُمْ فَأَنْذِرْ ] [ المدثر ١ ، ٢ ] .

والتعبير بضمير جماعة المتكلمين « نا » أفادت أن أمره  $\rho$  قد عمَّ الجميع، فالكل سواء في الأمر، والجميع مكلف بتنفيذ الأمر، فلا استثناء ولا محاباة لأحد، وفيه - أيضاً - اعتراف من أبي سفيان قبل إسلامه بأن دين الإسلام قد جاء للناس جميعاً، لا فرق بين السادة والعبيد، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

كما أن في مجيء قوله « يأمرنا » بعد قوله : ( يقول : « اعبدوا الله » ) ليشير إلى المغايرة بين الأمرين، فيما يترتب على مخالفتها، إذ يخالف الأول كافر والثاني عاص<sup>(٣)</sup>.

وقد خص الصلاة والصدق بالذكر؛ لأن أبا سفيان - وقتها - كان يدرك تماماً أهمية الصلاة، وأنها تمثل الحد الفاصل بين الكفر والإيمان، وأن الذي يستحق السجود له هو الله - تعالى - الخالق لا هذه الأوثان التي لا تنفع ولا تضر، وتمثل الصلاة تجسيدا حيا للإيمان، وتطبيقاً عملياً للتوحيد، مما يدفع عقلاً مثل عقل أبي سفيان أن يعقد المقارنة، ويتمكن من الوقوف على الحقيقة.

(١) ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين د. محمد الواسطي « وظيفة التقابل » ٢٣٣ - ٢٣٦ دار نشر المعرفة ، الرباط المغرب

الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م

(٢) الإعجاز الصربي في القرآن الكريم د. عبد الحميد هندراوي ٢١٦ - ٢١٧ المكتبة المصرية صيدا - بيروت طبعة أولى ٢٠٠١ م

(٣) دليل الفالحين ٢ / ٢٠٨ .

وكذلك الحال بالنسبة للصدق رغم أن العرب يستقبحون الكذب، فقد أمرهم  $\rho$  بوقفة صدق مع أنفسهم، ومراجعة ما جاء به النبي  $\rho$ ، وتدبر ما هم عليه من عبادة الأوثان، والغرق في أوهام ووساوس الشيطان، مما يدفع على ترك الشرك والدخول في الإسلام.

وفي الجمع بين الصلاة والصدق، يعود بنا إلى الرباط الجامع، والمعصم الذي يمسك بين الحديثين، وهو الطمأنينة، فالجمع بينهما يجلي الطمأنينة في أعلى صورها، فالصلاة طمأنينة، كما أن الصدق طمأنينة، قال تعالى: [ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ] [ التوبة ١٠٣ ]، وقال تعالى: [ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ] [ الرعد ٢٨ ]، والصلاة أعلى مراتب الذكر.

ثم يأتي الحديث الثالث لبيان جزاء الصدق في الدنيا، إذ يحدث البركة للمتبايعين، « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما ».

فإن صدقا فيما يخبران به البائع في المبيع، والمشتري في الثمن قدرا وصفة، وأن الثمن انتهت فيه الرغبات إلى كذا، ويخبر بما يترتب عليه تفاوت الرغبات من عيب ونحوه، « وبينا » ما يحتاج إلى بيانه من نحو عيب وإخبار بثمن وغير ذلك من كل ما كتمة غش وخيانة، وقدم الصدق على البيان؛ لأنه سببه والدافع إليه، فالصدق يدفع الشخص إلى محاسبة النفس، ومراقبة الله مما يحتم عليه بيان السلعة ابتغاء مرضاة الله؛ ولذا « بورك لهما في بيعهما » أعطاهما الله الزيادة والنمو في بيعهما وشرائهما بتسهيل الأسباب المقتضية لزيادة الربح من كثرة الراغبين، وحسن المعاملين، ومنع الخيانة في المتاع.

ويأتي الطرف الثاني للمقابلة بذكر الضد ليوضح المعنى ويقرره في نفس السامع فقال: « وإن كتما » ما في السلعة من العيوب ونحوها، ومما يجب الإخبار به شرعا، « وكذبا » فيما يمدحانها، وفي نحو صفات الثمن والمثمن، « محقت بركة بيعهما » ذهبت واضمحلت، فلم يحصل منه إلا على مجرد التعب، وقدم الكتم على الكذب للترتيب الزمني، حيث إن الكتم يحدث أولا، ثم يأتي الكذب تمويها وتضليلا.

وفي بناء الفعلين « بورك »، « محقت » لما لم يُسَمَّ فاعله تركيز على الحدث، والاهتمام به، وأن الفاعل معلوم هو الله - تعالى -، وإشارة إلى أن كلا من البركة والمحق أمر محقق الوقوع مع خفاء فاعله، مما يشعر بالترغيب والترهيب، فيؤدي إلى أخذ الحذر واليقظة التامة.

ولسائل أن يسأل هل يقف جزاء الصدق على البركة الدنيوية؟

والجواب هو الحديث الرابع من هذه المجموعة قول  $\rho$ : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا ».

وذلك لأن الصدق مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معا، ويعبر بالصدق عن كل فعل فاضل ظاهرا وباطنا، فكل ما نسب إلى الخير والصلاح أضيف إلى الصدق<sup>(١)</sup>.

وقد جعل الغزالي للصدق ستة معان هي :

صدق في القول ، وصدق في النية والإرادة ، وصدق في العزم ، وصدق في الوفاء بالعزم ، وصدق في العمل ، وصدق في تحقيق مقامات الدين كله<sup>(٢)</sup>.

ولذا كانت منزلة الصدق عظيمة، يقول ابن القيم عن منزلة الصدق : « وهي منزلة القوم الأعظم، الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه، فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي إذا ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلا إلا أرداه وصرعه ... فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال ... »<sup>(٣)</sup>.

« والصدق أصل والإخلاص فرع، والصدق أصل كل شيء، والإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في الأعمال، والأعمال لا تكون مقبولة إلا بهما ... »<sup>(٤)</sup>.

ولقد جاء هذا الحديث ليبين مكانة الصدق في الآخرة، بأنه يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة، وصاحبه إذا تحرى الصدق كتب عند الله صديقا، من خلال مقارنة ومقابلة عجيبة بين الصدق والكذب.

ولذا كان أمر النبي  $\rho$  باسم الفعل « عليكم بالصدق » في غاية الإيجاز والمبالغة، لأن اسم الفعل قد وضع للمذكر والمؤنث، والمفرد والمثنى والجمع بلفظ واحد، وصورة واحدة، فهو لا يختلف باختلاف المخاطب، ولا المخبر عنه، ولا المتكلم تذكيرا ولا تأنيثا، ولا إفرادا ولا تثنية ولا جمعا، وذلك بخلاف الفعل الذي يختلف لفظه باختلاف ما اشتمل عليه من الضمائر التي هي علامات التأنيث والتثنية والجمع.

ويتحقق الإيجاز في اسم الفعل في اختصار الجملة الطويلة إلى جملة قصيرة.

وتتأتى المبالغة في كون اسم الفعل أعم في المعنى وأشمل، وأكثر توكيدا من الفعل الذي ناب عنه هذا الاسم، وفي ذلك من المبالغة ما فيه من إفادة معنى التعجب.

وبدء الحديث بقوله  $\rho$  « عليكم بالصدق » دليل على أن لصدر الحديث في البيان النبوي صفة غالبية من صفات الإثارة والتشويق، وهي أفانين لا ينتهي العجب منها.

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ٢٧٧ ، ١٧٨ ت محمد سيد كيلاني دار المعرفة بيروت (بدون) .

(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ٤ / ٣٧٥ - ٣٨٠ مكتبة ومطبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٣٩م.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: لابن القيم ٢ / ٢٧٩ دار الحديث خلف الجامع الأزهر (بدون) .

(٤) الرسالة القشيرية للإمام القشيري ١٠٥ - ١٠٧ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر طبعة ثانية ١٩٥٩م .

من ذلك تقديم صيغة التحذير أو صيغة الإغراء، فإن السامع إذا طرقت سمعه ( إياكم أو عليكم ) انتفض من شواغله، وألقى انتباهه، وبخاصة إذا عرف في مُحَدِّره أو مُعْرِيه حرص الناصح الأمين<sup>(١)</sup>. والخطاب في قوله : « عليكم » وفي قوله : « إياكم » أفاد العموم، فهو خطاب لكل من يصلح أن يتوجه إليه الخطاب؛ لإفادة الاعتناء والاهتمام بما يأتي بعده من خصال كريمة، وأن كل مكلف يجب عليه أن يمثل الأمر، ويتحلى بهذه الصفات كالصدق أو من خصال مذمومة يجب أن يتجنبها المخاطب. ونلاحظ تأكيد الخبر « فإن الصدق يهدي إلى البر » بأن والفاء، وفي ذلك تعليل للأمر المسوق في أول الحديث بالتزام الصدق، وتأكيد للخبر بـ « إن » لقصد تحقق المخبر به، وتقوية مضمون الكلام عند المخاطب، وتقديره في نفسه.

كما نجد المجاز العقلي في إسناد الفعل « يهدي » إلى ضميري « الصدق »، و « البر » في جانب الصدق، وإلى ضميري « الكذب »، و « الفجور » في جانب الكذب، وذلك لعلاقة السببية حيث إن الذي يهدي هو الله - تعالى -، وما الصدق والكذب إلا مجرد سببين، وفي الإسناد إلى السبب إشعار بقوة السبب وأهميته في إحداث الفعل حتى صح أن يسند إليه بدلا من فاعله الحقيقي.

وفي تقديم المسند إليه على ضميره الفعلي في قوله ρ : « فإن الصدق يهدي .. » و « إن البر يهدي ... »، « فإن الكذب يهدي ... »، « الفجور يهدي .. » إفادة التقوية والاهتمام، وتوكيد نسبة الفعل إلى الفاعل، وتوثيق هذه النسبة، ودفع الشك والتوهم الذي يقع في نفس المخاطب. ولما كانت الهداية دلالة بلطف كانت على حقيقتها في جانب الصدق، وأما في جانب الكذب فقد جاء الفعل يهدي « على سبيل الاستعارة التهكمية، التي هي إحدى صور الاستعارة العنادية، من كل ما استعمل في ضد معناه أو نقيضه، بتنزيل التضاد أو التناقض منزلة التناسب بواسطة تحكم أو تمليح<sup>(٢)</sup>.

ولنا ههنا وقفة مع قوله ρ : « حتى يكتب عند الله صديقا »، « حتى يكتب عند الله كذابا » ف « حتى » للتدرج، ومعنى يكتب : يحكم له بذلك، ويستحق الوصف بمنزلة الصديقين وثوابهم، أو بصفة الكاذبين وعقابهم، والعندية عندية تشريف وتكريم للصديق، وعندية تخويف وتحذير للكذاب. والتصريح بلفظ الجلالة ( الله ) تربية للمهابة، وتكريما للصديق، وتهديدا للكذاب. والمراد بصيغة المبالغة « صديقا » من يتكرر منه الصدق ويداوم عليه حتى يصير سجية له وخلقا حتى يستحق اسم المبالغة فيه، ويشتهر بذلك عند الملأ الأعلى قولاً وفعلاً واعتقاداً، ثم يوضع له ذلك في قلوب أهل الأرض.

(١) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د. عز الدين السيد ٣٦٨، ٣٩٠، دار الطباعة المحمدية بالأزهر القاهرة ١٩٧٣ م.

(٢) مباحث في طرق البيان د. رفعت السوداني ٣٥٠ - ٣٥٣ بدون طبعة وتاريخ.

والمراد بصيغة المبالغة « كذابا » أن يحكم له بتحقيق مبالغة الكذب منه، وأنها الصفة المميزة له مبالغة في كذبه، فهو ضد الصديق<sup>(١)</sup>.

والحديث تميز بالمقابلة التي فيها يكشف الضد عن جمال الضد ويبرزه، فذكر الأضداد يزيد المعنى وضوحا.

ثم يأتي الحديث الأخير، ليبين منزلة الذين كتبوا وسجلوا عند الله صديقين ودرجتهم في الجنة، وعلو منزلتهم « من سأل الله - تعال - الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه »، إنه جزء الصادقين، أن ينالوا بصدقهم منازل الشهداء، مصداقا لقول الحق [ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ] [ المائدة ١١٩ ] وقوله: [ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ] [ الأحزاب ٢٤ ] .

من سأل بإطلاق الزمن الماضي تأكيدا لحصول الجزاء المترتب على الفعل في مقام الترغيب أو التهيب، تصويرا له بصورة الواقع ليجتنب أو يلتزم.

والشهادة فيها إيجاز بالحذف، والتقدير: سأل الله إنالة الشهادة، حذف المضاف للعلم به، و « يصدق » حال كونه صادقا في سؤالها، قيد مقصود بالحكم؛ لأن الصدق معيار الأعمال ومفتاح بركاتها، وبه ترجى ثمراتها.

ثم يأتي جواب الشرط « بلغه الله منازل الشهداء » يقرر الجزاء بسبب نيته الصادقة ومجازاة له على صدق الطلب، والجمع في « منازل الشهداء » يفيد المبالغة في تحقيق هذا الجزاء، وأنه ليس منزلا واحدا بل منازل متعددة، إكراما لمن صدق في طلب الشهادة.

والتعبير بلفظ الجلالة ( الله ) في جملة الشرط « من سأل الله » تربية لمهابة الله في قلبه، وأنه دائم المراقبة لله، قد بلغ درجة الإحسان يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فالله - تعالى - يراه. والتعبير بالظاهر « الله » في جملة جواب الشرط « بلغه الله ... » تعظيما لهذا الجزاء وأن الله - تعالى - تولى بذاته إعطائه هذا الجزاء، فهو جزاء لا يدرك فضله إلا الله.

وتأتي خاتمة الحديث بجملة شرط أخرى محذوفة الجواب: « وإن مات على فراشه » والتقدير: وإن مات على فراشه بلغه الله منازل الشهداء، حذف الجواب لتقدمه، فهو معلوم لدى المخاطب؛ لأنه نوى خيرا، وفعل ما يقدر عليه، فاستوى مع الشهداء في أصل الأجر، ولا يلزم من استوائهما في الأجر من جهة الأصل استوائهما في كيفية الأجر، وتفصيله، إذ الأجر على العمل ونيته يزيد على مجرد النية ولا ريب أن الحاصل للمقتول من ثواب الشهادة تزيد كميته وصفاته على الحاصل للناوي الميت على فراشه،

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٢ / ٣٦١ دار إحياء السنة المحمدية، دليل الفقهاء ٢ / ٢٠٣، ٢٠٤، وتحفة الأحوذى

شرح جامع الترمذي للمباركفوري ٦ / ٩١ دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة الأولى ١٩٩٠ م

وإن بلغ منزلة الشهيد، فهما وإن استويا في الأجر لكن الأعمال التي قام بها العامل تقتضي أثرا زائدا،  
وقربا خاصا، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء<sup>(١)</sup>.

والحديث دليل على أن صدق القلب سبب لبلوغ الأرب، وأن من نوى شيئا من عمل البر أثيب  
عليه وإن لم يتفق له عمله، هكذا حديث رسولنا من حيث أتته بهرك بتمام أجزائه، وتكامل أركانه،  
وكأنه العقد المترص، والله أسأل التوفيق والسداد.

#### الخاتمة

الحمد لله خاتمة كل شيء، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين والنبين، وعلى آله ومن اهتدى بهديه  
إلى يوم الدين وبعد

لقد ثبت لدي، واستقر في عقيدتي بعد أن فرغت من هذا البحث أن بلاغة حديث رسولنا ρ لا  
تقف عند حدود كلمة، أو جملة، أو حديث واحد، بل تمتد للتشابه وتكامل لتصنع وحدة موضوعية  
، في نسق عجيب، وتكامل بديع، فنجد الوشائج وأواصر القرى والرحم كما تكون بين جمل الحديث،  
ومعانيه فإنها تكون بين الحديثين والأحاديث التي يجمعها معنى عام، أو موضوع واحد، بحيث تتلاقى  
المعاني في الحديثين أو الأحاديث وتتآزر، بل وتتكرر بعض الألفاظ فيها لتكون معالم هادية لهذا التشابه  
، والتواصل، والتناسب، ثم ينفرد كل حديث منها بما يضيف إلى المعنى إضافة يكون بها الحديث أصلا  
في معناه، ورأسا في فقه مسألة، أو تشريع، وهذه الإضافة أيضا تملأ مساحة كان مسكوتا عنها في  
الحديث الآخر، وبضم الحديثين أو الأحاديث تكتمل الصورة الكلية للمعنى، أو الموضوع للحديث  
النبوي الشريف.

كما نجد ظاهرة تكاد تكون واضحة جلية في أحاديث هذا البحث، وذلك أن أحاديث رسول الله ρ  
تصنع في تكاملها: مقدمة، وتمهيدا، وخاتمة، من خلال أمر أو خبر، أو نهي، وترغيب في فعل هذا  
الأمر، أو ترهيب في البعد عن المنهي عنه، مع بيان جزائه في الدنيا والآخرة.

ففي أحاديث المبحث الأول نجد التمهيد واضحا جليا في قوله ρ: "كل بني آدم خطاء..."، وقوله  
: "الصدقة تطفئ الخطيئة"، ثم نجد الأمر المباشر منه ρ: "على كل مسلم صدقة"، ثم تأتي النتيجة  
والخاتمة، وهي جزاء هذه الصدقة يوم القيامة بأن تكون ظلة لصاحبها يوم القيامة، ونجد الأمر أكثر  
وضوحا في أحاديث المبحث الثاني فانظره.

كما نجد أحاديث المجموعة الواحدة تأتي من واد واحد في ألفاظها، ومعانيها، وصورها البلاغية.

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦ / ١٤٤.

فمثلا المبحث الثالث نجد بناء أحاديثه قائما على المقابلة بين الصدق والكذب ، كما نجد بعض الأحاديث قائما على أسلوب النهي "لا يشبع" ، "لا يمنع" ، مع اتحادهما في نوع الفعل . إلى غير ذلك من النتائج الموثقة في البحث ، فتحليل كل كلمة ، وكل جملة من حديث رسول الله ﷺ وتلمس دقائق بيانه يعد نتيجة في حد ذاته ، فانظرها .  
ومما يوصي به الباحث إعادة دراسة حديث رسول الله ﷺ دراسة موضوعية كاشفة لأسرار هذا الترابط بين أحاديث الموضوع الواحد ، مع تلمس الفروق الدلالية ، والمعاني الإشارية لنصوصه ﷺ إذ بيانه يعد تاليا للبيان القرآني .

والله أسأل التوفيق والسداد

د. إسماعيل رفعت إسماعيل السوداني

### ثبت المراجع

- ١- إحياء علوم الدين للإمام الغزالي - مكتبة ومطبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٣٩م.
- ٢- الأدب النبوي حمد عبد العزيز بن علي الشاذلي الحَوَلي (المتوفى: ١٣٤٩هـ): دار المعرفة - بيروت - الطبعة: الرابع، ١٤٢٣ هـ.
- ٣- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لأحمد بن محمد القسطلاني - المطبعة الأميرية ط ٧ / ١٣٢٣ هـ .
- ٤- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم د. عبد الحميد هنداوي - المكتبة المصرية صيدا - بيروت طبعة أولى ٢٠٠١ م .
- ٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل - ت: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) ، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ .



- ٦- بحر الفوائد، للكلاّبازي المشهور بمعاني الأخبار - أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاّبازي البخاري الحنفي (المتوفى: ٣٨٠هـ) ت: محمد حسن محمد حسن إسماعيل - أحمد فريد الزبيدي - دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ٧- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة - عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: ١٣٩١هـ) - الناشر: مكتبة الآداب - الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م .
- ٨- تاج العروس من جواهر القاموس - لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ) ، ت : مجموعة من المحققين ، دار الهداية .
- ٩- التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) - الدار التونسية للنشر - تونس طبعة ١٩٨٤ هـ .
- ١٠- تحفة الأحمدي شرح جامع الترمذي للمباركفوري - دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة الأولى ١٩٩٠م .
- ١١- التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر د. عبد الفتاح لا شين ، دار المريخ السعودية ١٩٨٠م.
- ١٢- الترغيب والترهيب من الحديث الشري - لعبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، أبو محمد، زكي الدين المنذري (المتوفى: ٦٥٦هـ) ، ت: إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ .
- ١٣- التشبيه المقلوب تأريخاً ودراسة ، رسالة ماجستير كلية اللغة العربية جامعة الأزهر د. إسماعيل رفعت السوداني ٢٠٠٦م .
- ١٤- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ) ، دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ١٥- تهذيب الآثار ، للطبري - ت : علي رضا ، دار المأمون للتراث - دمشق ، ط أولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٥ .
- ١٦- الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ، د. عز الدين السيد - دار الطباعة المحمدية بالأزهر القاهرة ١٩٧٣م .
- ١٧- حق الجار وفضله في البيان النبوي الشريف دراسة بلاغية د. لبيد إبراهيم حمودة ص ٥٧٤ بحث مستل من مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة العدد الثالث والثلاثون الجزء الثالث ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م .
- ١٨- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، ت محمود شاكر - مطبعة المدني بالقاهرة ، ط ثالثة ١٤١٣ - ١٩٩٢ .

- ١٩- دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى ٣١٩ ، ٣٢٠ مكتبة وهبة طبعة ثانية ١٩٨٧ م .
- ٢٠- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، لابن علان مراجعة محمود حسن ربيع- مكتبة مصطفى الباي الحلبي بدون.
- ٢١- الرسالة القشيرية للإمام القشيري - مكتبة ومطبعة مصطفى الباي الحلبي بمصر طبعة ثانية ١٩٥٩ م .
- ٢٢- سبل السلام محمد بن إسماعيل بن محمد الحسنى - دار الحديث بدون طبعة وتاريخ .
- ٢٣- شرح ابن بطال على صحيح البخاري ، ت : ياسر إبراهيم - مكتبة الرشد الرياض ، ط ثانية ١٤٢٣ - ٢٠٠٣ .
- ٢٤- شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول ، د. محمد محمد أبو موسى - مكتبة وهبة - الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .
- ٢٥- شرح الزرقاني على الموطأ ، ت : طه عبد الرؤوف سعد - مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ، ط أولى ١٤٢٤ - ٢٠٠٣ .
- ٢٦- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى الكاشف عن حقائق السنن ، ت : عبد الحميد هنداوي ، مكتبة نزار الباز ، ومكة المكرمة - الرياض ط أولى ١٩٩٧ .
- ٢٧- شرح الكرواني على صحيح البخاري - دار إحياء التراث العربي بيروت ، ط ثانية ١٤٠١ - ١٩٨١ .
- ٢٨- ظاهرة البديع عند الشعراء المحدثين د. محمد الواسطي « وظيفة التقابل » - دار نشر المعرفة ، الرباط المغرب الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م .
- ٢٩- عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، للعيبي - إدارة الطباعة المحمدية .
- ٣٠- علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم المعاني ، د. بسيوني فيود - مؤسسة المختار ، ط الثالثة ١٤٣١ - ٢٠١٠ .
- ٣١- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني - دار المعرفة بيروت ١٣٧٩ .
- ٣٢- الفتوحات الربانية على الأذكار النووية ، لمحمد بن علان الصديقي - المكتبة الإسلامية (بدون).
- ٣٣- الفخر الرازي = التفسير الكبير - ت : أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، ط الثالثة - ١٤٢٠ هـ .
- ٣٤- فيض الباري على صحيح البخاري لمحمد أنور شاه الكشميري تحقيق محمد بدر - دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط أولى ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .
- ٣٥- فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي - دار إحياء السنة النبوية ط أولى .

- ٣٦- لسان العرب ، محمد بن مكرم بن علي ، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري - دار صادر - بيروت ، ط الثالثة - ١٤١٤ هـ .
- ٣٧- مباحث في طرق البيان د. رفعت السوداني ٣٥٠ - ٣٥٣ بدون طبعة وتاريخ .
- ٣٨- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: لابن القيم - دار الحديث خلف الجامع الأزهر (بدون) .
- ٣٩- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني - ت.: محمد سيد كيلاي دار المعرفة بيروت (بدون) .
- ٤٠- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها د. أحمد مطلوب - مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٦ م .
- ٤١- المعجم الوسيط ، ت : مجمع اللغة العربية بالقاهرة - دار الدعوة .

#### فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع	م
أ	العنوان	١
	المقدمة	٢
	المبحث الأول : من أسرار التناسب والتكامل في أحاديث الصدقة .	٣
	المبحث الثاني : من أسرار التناسب والتكامل في أحاديث الجار .	٤
	المبحث الثالث : من أسرار التناسب والتكامل في أحاديث الصدق	٥
	الخاتمة	٦
	تبت المراجع	٧
	فهرس الموضوعات	٨

